مكتبة الأسرة

الأعمال الفكرية

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشباب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

د. رفعت السعيد

المتأسلمون

ماذا فعلوا بالإسلام و.. بنا ؟

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم :(٧١)

المتأسلمون
ماذا فعلوا بالإسلام.. وبنا؟

٢١٠/٤
سعا م

د. رفعت السعيد

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

إشراف :مصطفى غنايم

المتأسلمون
ماذا فعلوا بالإسلام .. وبنا؟
د. رفعت السعيد

الغلاف والإشراف الفنى :
للفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطناً!

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح،.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة،

كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. **«مكتبة الأسرة»**.

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعمية**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

المتأسلمون ..

ماذا فعلوا بالإسلام وبنا

قاموس للاستخدام المباشر*

- إرهاب

من «رهب» أي خاف ويقال : رهبه أي أخافه وأفزعه[1] ومنها يرهب ورهبة أما كلمة إرهاب فهي مشتقة من الفعل المزيد أرهب، فيقال أرهب فلانا أي خوفه وأفزعه[2]. أما الفعل المزيد بالتاء «ترهب» فيعني أنه خاف غواية الدنيا له فانقطع للعبادة في صومعته. وفي الآية الكريمة «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفي بعهدكم واياي فإرهبون» أي خافوني.

وأيضا «قال القوا فكلما ألقوا سحروا أعين الناس وإسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم» (الاعراف ١١٦).

وكذلك «لأنتم الأشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» (الحشر١٣) أي أشد تخويفا.

---

* يتمني الكاتب علي القارئ أن يتأمل هذه المفردات ومعانيها قبل أن يتواصل مع موضوعات الكتاب بأمل أن نحقق معا تجاوبا في فهم هذه المفردات ومدلولاتها. علما بأن ترتيبها جاء حسب اقتراب المعاني من بعضها البعض وليس حسب الأبجدية.

و٠٠«واضــمــم إليك جناحك من الرهب» (القــصـص٣٢) أي من الخوف٠

- **إغتال**

أصلها غول٠ ومنها غال الشئ من باب قال٠ واغتاله أي أخذه من حيث لم يدر٠ وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول٠ اغتاله أي قتله غيله٠ ويقال الغضب غول الحليم لأنه يغتال الحلم[٣]

وعند الأصمعي : الغيل هو الشجر الكثيف، ويقال قتله غيلة فهو يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله٠

ويقال : غاله غولا أي أهلكه بأن أخذه من حيث لا يدري، وغالته الخـمـر إذا شـربهـا فـذهبت بعـقله، وغـاول الأعـداء أي باغـتـهم بالهجوم[٤].

- **الشريعة**

وهي من شرع أي تناول الماء بفمه، أي نهل منه٠

والشرع هو الطريق٠ وما شرعه الله تعالي٠ وأشرع نجوه الرمح أي سدده٠[٥]

والشريعة هي ما شرع الله لعباده من الدين٠ وشرع لهم أي سن وبابه قطع٠

ويقال شرع الدين أي حدد أحكامه٠

وفي الآية الكريمة «ثم جعلناك علي شريعة من الأمر فأتبعها»٠

- الفقه

ففقهَ الأمر فقها أي أحسن فهمه٠ وفقهَ فقاهة أي صار فقيها٠ أفقهه أي أفهمه، وفاقهه أي تفوق عليه في الفقه٠٠ تفقه الأمر أي تفهم٠ والفقه هو الفهم والفطنة والفقيه هو العالم الفطن[٦]٠

والفقه هو الفهم. وفاقهه أي تباحث معه[٧] ويقال لا يفقه أي لا يعرف٠

وفي الآية الكريمة «ذلك بأنهم قوم لا يفقهون» والفقه شئ والتفيقة شئ آخر فالتفيقة شطط وغلو وإدعاء٠ قال عمر بن الخطاب «نهينا عن التفيقه»٠

ومنذ صدر الإسلام وبعد وفاة الرسول بدأت تتبلور ملامح مدرستين في الفقه ، فقه اسمي فقه «الأثر» أي ذلك الذي تحرج من الاجتهاد بالرأي أن لم يجد نصاً من القرآن أو السنة٠ وفقه آخر كان يفتي برأيه غير متوقف إذا لم يجد نصاً يسعفه واسمي فقه «الرأي»٠ مدرستان ظلتا وحتى الآن تناوشان الفهم الإسلامي فقه النقل وفقه العقل٠ وبطبيعة الحال فقد كانت كل منهما تستند أما إلى الأثر أو الرأي بشكل نسبي وإنما يزيد هذا عن ذاك باختلاف المدرستين وكان مستقر مدرسة الأثر بالمدينة والمدرسة الأخرى كان مستقرها في العراق٠

ومن هنا نفهم أن الشريعة هي ما شرع الله وهي حجة الله علي الناس وهي مطلقه الصحة. أما الفقه فهو فهم إنساني ومن ثم فهو نسبي الصحة. بمعني إنه قد يحتمل الخطأ والصواب، وقد يطرأ عليه متغيرات آتية عبر تغير الزمان والمكان والرؤية الشخصية.

- الجدل

الجدل ومنه جادله أي خاصمه، مجادلة وجدالا[٨]. ويقال: تجادلا في الأمر أي اختصما حوله. وعند المناطقة المسلمين الجدل : «هو قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات»[٩].

وفي الآية الكريمة- «قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا» (هود ٣٢).

وأيضا «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق» (غافر ٤٠).

وكذلك : «ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب منير» (الحج ٢٢).

و.. «وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا» (غافر٤٠).

- الحوار

تحاور أي تجاوب، والمحاورة هى المجاوبة [١٠]ويقال حار في الأمر فهو حائر. ومن ثم فهو بحاجة إلى استدعاء الفهم. والحوار جزء من فرائض الإسلام. فلقد ورد في القرآن الكريم كيف أن

نوحا عليه السلام حاوره سبحانه «وإذ قال نوح رب لا تذر علي الأرض من الكافرين دياراً» وكذلك إبراهيم عليه السلام «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتي». وكذلك جرى الحوار بينه سبحانه وبين الرسول «يا أيها النبي» وبين موسي وهارون «إذهبا إلى فرعون». والحوار أداة للتواصل والتفهم المشترك، ولعل الإسلام قد ألح علي هذه القيمة كدعوة صريحة وملحة لحوار متواصل.

فسبحانه وتعالي كان يستطيع أن يلهم أو حتي يزع محاوريه بالموقف والرأي الواجب الاتباع حتي قبل أن يبدأوا حوارهم معه، لكنه وفي أكثر من آية قرآنية أتي على ذكر محاوريه، وعلي ذكر حوارات الأنبياء مع شعوبهم، وحوار إبراهيم مع أبيه ومع الملك النمرود، وعشرات الأمثلة الأخرى كمحاولة لتلقين المسلمين قيمة الحوار.

وإذا كان الجدل تعبير عن خلاف وخصومه، فالحوار تفاهم مشترك ومودة.

وحتي مع الخصومة فإن الجدل يتخذ في الإسلام طابعاً لينا «اذهبا إلى فرعون أنه طغي وقولا له قولا لينا».

وفي السنة أن الرسول دعي الي حوار مع عقبة بن الربيع وكان مندوباً عن كفار مكه، وقد ظل ابن الربيع يمنيه بالمغريات أن أراد الملك سيكون له الملك، أو زواجا من جميلة فهي له، أو علاجاً من

جنون سيعالجون، والرسول هادئ صابر، وبعد أن انتهت العروض المغرية أجاب الرسول «هل فرغت من حديثك يا أبا الوليد؟»..

وماهذه الكتابة كلها سوي دعوة لإحياء فريضة الحوار.

* * *

ثم نأتي إلى كلمات أثارت خلافا بين الكتاب والباحثين.

فقد استخدم البعض منهم صفات مثل «التطرف، والمتطرفين» و«الأصولية، والأصوليين».

واستخدمنا نحن صفة «التأسلم والمتأسلمين».

فلماذا؟

- المتطرفون

الطرف الناحية، وطرف الرجل آباؤه الأولون(١٢). ويقال أن فلانا كريم الطرفين فيراد نسبه لأبيه وأمه(١٣). ويقال طرف الجندي أي قاتل في الأطراف. وتطرف أي أتي إلى الطرف(١٤).

- الأصوليون

وأصل الشئ أساسه الذي يقوم عليه. والأصول هي القواعد التي تبني عليها الأحكام والنسبة إليها أصول وجمعها أصوليون (١٥) ويقال «أصيل الرأي» أي محكم الرأي(١٦).

وهكذا فإن البعض إذ يستخدم لفظ «المتطرفين» فإنه ينسبهم إلى

طرف الإسلام أي منتهاه وإلى آبائنا الأولين من المسلمين. أما إذا استخدم صفة «الأصوليين» فقد وضعهم في موضع دعاة الأحكام الأصولية.

وفي كلا الحالين فإنه يمتدحهم ويعلي من شأنهم ويستدعي الجميع للاقتداء بهم. وهذه النزعة أصلها استشراقي وهي تعني في خلاصة الأمر أن الإرهاب والغلو عودة إلى أصل الإسلام وطرفه الأول.

ولهذا فقد حذرنا من استخدام هذين اللفظين وفضلنا استخدام صفة أخرى..

- التأسلم

والتاء إن جاءت في أول الفعل صارت علامة كأن تقول «تآكل». وهي تعني تجاوز أصل الشئ دون الخروج عند صفته الأولى. فإذ نقول «تأسلم» فأننا لا نعني أنه لم يعد مسلما، بل إنه كذلك لكنه فهم الإسلام فهما خاطئاً . كأن تقول «تفلسف» فالتاء إذ أضيفت إلى الفعل تعني إنه تجاوز حدود الفلسفة الصحيحة إلي فهم خاطئ لها . كذلك الفارق - الذي رأينا فيما سبق- بين الفقه والتفيقه. وفي الآية الكريمة «لها ما كسبت وعليها اما اكتسبت» لها ما كسبت(إيجابا) وعليها ما اكتسبت (سلبا). والفارق واضح. وعلى هذا النحو يقال

«تأقلم» و«تأمرك» و«تأجنب»، . إلخ.

وهكذا فإن المتأسلم.. هو ذلك الذي فهم الإسلام فهما خاطئا، والذي تجاوز حدود الإسلام الصحيح تجاوزا قاد أصحابه إلى الغلو وإلى الإرهاب والقتل والتكفير وما هذا بالإسلام الصحيح، ولا هو ذلك الذي أتي رحمة للعالمين.

لقد حاول المتأسلمون اختطاف الإسلام مدعين إنهم يمثلونه وإنهم الممثل الشرعي والوحيد له، بل هم يسيئون إليه، ويسيئون إلينا. وباختصار الإسلام هو شريعة الله وسنه رسوله، أما التأسلم فهو خروج عن تعاليم الإسلام وهو غلو وشطط خارجاً عن حدود الصحيح من الإسلام.

* * *

وبعد التأمل في مفردات هذا القاموس يصبح ممكناً أن نبدأ.

الهوامش

١- مـختـار الصـحـاح - الشـيخ الإمـام مـحـمـد بن أبي بكر الرازي- باب رهب(١)٠

٢ - لسان العرب٠

٣ - مختار الصحاح، المرجع السابق٠

٤ - المعـجم الوسـيط- مـجـمع اللغـة العـربيـة- أخـرجـه إبراهيم مـصطفى وآخرون٠

٥ - المرجع السابق٠

٦ - المرجع السابق٠

٧ - مختار الصحاح٠

٨- المرجع السابق٠

٩ - الوسيط

١٠- مختار الصحاح٠

١١ - الوسيط٠

١٢ - المحيط٠

١٣- مختار الصحاح٠

١٤- الوسيط٠

١٥ - المرجع السابق٠

١٦ - مختار الصحاح٠

* «العلم عندنا هو الرخصة عن ثقة
أما المنع فكل واحد يُحسنه»

أبو حنيفة

ما قبل البداية

فى هذه الكتابة نحن نتكلم عن مسلمين وليس عن الإسلام ذاته.

ولعل هذا الأمر هو ما يتعين تأكيده منذ البداية الأولي.

فالإسلام المعتقد والدين هو معطى سماوى كلى الصحة. بينما نجد أن المسلمين (البشر) هم آراء شتى. وكل من هذه الآراء يحتمل الصحة والخطأ. ويحتم المحاجة والقول والقول المضاد.

ومن هنا كان حرصنا الدائم على ضرورة التفريق بين الدين وبين الرأى فى الدين ، وتحذيرنا من خطورة الخلط بينهما.

ولعلنا نستعيد فى هذه السطور المبكرة قول ابن المقفع «الدين تسليم بالإيمان، والرأى تسليم بالخصومة، فمن جعل الدين رأيا فقد جعله خصومة، ومن جعل الرأى ديناً فقد جعله شريعة».

ومن هنا فإن علينا أن ننظر إلى ما بين ايدينا من فقه على إنه مجرد نص منتج بواسطة بشر قد يقولون صوابا أو خطأ.

ولعل هذه العبارة تدفعنا إلى فحص أمرين.. النص والفقه.

والنص هو تعبير لغوي، واللغة يمكن فهمها على أوجه . خاصة إذا ما جاء النص حمالا لأوجه عدة. وحتى القرآن الكريم فهمه البعض على وجه والآخرون على وجه آخر - بل أن البعض تلاعبوا -

وعن عمد- بالتعامل مع النص.

ولعل هذا ما دفع الإمام على بن أبى طالب إلى القول «القرآن لا ينطق وهو مكتوب، وإنما ينطق به البشر، وهو حمال أوجه».

فلو كان القرآن الكريم ينطق وهو مكتوب فهل كان يسمح لعبد الله بن سبأ بأن يشعل نيران الفتنة بين على وعثمان ثم بين على ومعاوية مدعيا تفسيرات لآيات كريمة.. لم تخطر على بال أحد؟

ونقرأ حكاية عبدالله بن سبأ هذا..

« فى هذه السنة كان مسير من سار من أهل مصر إلى ذى خشب، ومسير من سار من أهل العراق إلى ذى المروة، وكان سبب ذلك أن عبد الله بن سبأ وكان يهوديا من أهل صنعاء، أمه سوداء، وأسلم أيام عثمان، ثم تنقل إلى الحجاز ثم إلى البصرة ثم الكوفة ثم الشام يريد إضلال الناس فلم يقدر منهم على ذلك، فأتى مصراً فأقام فيها وقال لأهلها« العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع، وقد قال تعالى «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد» وأكد إن محمداً أحق بالرجوع من عيسي، ووضع لهم الرجعة فقبلت منه، فقال بعد ذلك إنه كان لكل نبى وصى وعلى وصى محمد. محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء. فمن يكون أظلم ممن لم يجز وصيه رسول الله ووثب على وصيه. والله أن

عثمان قد أخذها بغير حق فانهضوا فى هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر تستحيوا به الناس»(١)

ولعل ما فعله ابن سبأ وأمثاله كان النموذج الواقعى لقول ابن حنبل «رب حرب أهاجها قبيح الكلام».

والحقيقة أن الأمر ظل ملتبسا في بعضه حتى على أقرب المقربين من الرسول، فعندما مات الرسول رفض عمر أن يصدق موته، وخرج شاهراً سيفه صائحا «إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما توفي، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات. والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا إنه مات. ويحاول أبو بكر أن يهدئ من روع عمر دون جدوي، فيجلس ليقرأ من القرآن «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» ثم يصيح فى الناس «من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» فعاد عمر إلى صوابه.

ويكمل ابن الأثير هذه القصة قائلا:إن عمراً قال بعد ذلك إنه إنما فعل ما فعل لأن كان يعتقد أن الرسول سيبقى حياً حتى يشهد على

أمته يوم القيامة. مستنداً إلى فهمه للآية الكريمة «وكذلك جعلناكم أمــه وسطاً لتكونوا شــهــداء على الناس ويكون الرســول عليكم شهيداً»(٢)

.. وإذ سئل عمر يوما ما معنى «الأب» في الآية «وفكاهة وأبا» فقال : لا أعرف ثم أردف «نهينا عن التفيقه».

وهكذا فإن في القرآن معان شئ، وفيه ما هو غامض ومستتر كدليل على إعجازه ولو شاء الرسول تفسيره وإيضاحه لفعل. ولما ترك لنا عشرات التفسيرات والتأويلات للآية التى تبدأ «كهيعص».

والحقيقة أن التأمل في القرآن يرينا أن اللفظ الواحد قد أتى بمعان مختلفة. كمثال «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي» فالخطاب هنا للناس أجمعين. ثم آية أخرى «والذين إذا قال الناس لهم أن الناس قد جمعوا لكم فإخشوهم» ناس يقولون لناس آخرين أن ناساً يجمعون لهم.

والأمر كذلك في اللغة دوماً.

فكلمــة «تعــالى» تســتــخــدم على مــعــان عــدة للنداء، وللتــرفع، وللتقديس.

وحتى في الإعراب «سار الرجل» (فاعل) «سار القطار» (نائب فاعل).

ودوما يكون الأمر هكذا وعلى سبيل الترويح نقرأ شعراً

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل

علـــــى أننا نذيــب الحديدا

في ساحة العشق تقتادنا الغيد

ونقتـــــاد في الطعان الأسودا

«تذيب» هنا تستخدم بمعنين، وكذلك «نقتاد»٠

ولعل ذلك هو ما دفع الإمام ابن جرير الطبري إلى القول «لقد أجرى الله الأحكام بين عباده على الظاهر٠ وتولى الحكم على سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد لكان أولى به رسول الله٠ وقد حكم للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا، ووكل سرائرهم الله»(٣)

ويقول أحمد أمين «كان الناس في عهد النبي وبعده يقرأون القرآن أو يسمعونه فيعنون بتفهم روحه، فإن عنى علماؤهم بشئ وراء ذلك فما يوضح الآية من أسباب النزول، وأكثر ما روى الطبري وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل»(٤).

ورغم أن أنس بن مالك (متوفى سنة ٩٠ هجرية) قد أكد «ما أعرف شيئا مما كان على عهد الرسول» فإن الكثيرين قد كتبوا بجرأة نادرة– رغم إنهم أتوا بعد أنس بن مالك بعشرات وربما بمئات

السنين– عن أخبار ووقائع لعلها أسهمت في إشاعة المفاهيم الخاطئة، والارتباكات والارتباكات المضادة في التعرف على ما كان، أو على بعض منه، خاصة وأن الكثيرين استخدموا ذلك كله لتأكيد أفكارهم ومواقفهم ومصالحهم. أو استخدموه استرضاء لرضا السلطان، واتقاء لسيفه.

وبدأت الخلافات.

يقول أحمد أمين «ما عرفنا في العصر الأول انحياز الصحابة إلى مذاهب دينية، وآراء في الملل والنحل ، فلما كنا في آخر العصر الأموي رأينا الكلام في القدر، ورأينا المتكلمين فيه ينظرون إلى القرآن من خلال عقيدتهم، فمن قال بالجبر قام بتأويل كل آيات الاختيار، ومن قال بالاختيار قام بتأويل كل آيات الجبر، وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسي، فصارت كل طائفة، وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم»(٥)

وتوقف هؤلاء جميعا عند النص ناسين «روح القرآن» وأسباب «التنزيل» وهما الجوهر في فهمنا له. «وكلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلالها.. وعلى الجملة فقد كدسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية، وتضخم ذلك على توالي الأزمان، كما ترى في تفسير الفخر الرازي، ففيه كل شئ

وصل إليه المسلمون إلا شيئا واحداً هو شرح روح القرآن»(٦)

كذلك كان الأمر وأفدح بالنسبة للأحاديث النبوية. فالقرآن مصون بنصه غير القابل للتحريف، أما الأحاديث فهى ما جرى تداوله عبر الرواه، ولهذا فإن كثيرا من الأحاديث قد أتى بأكثر من نص.

وكثيراً ما جرى اصطناع الأحاديث خدمة لهذا الطرف أو ذاك. وتبارى صناع الأحاديث فصنعوا مئات الآلاف من أحاديث لا يصدقها عقل، ولا يجوز أن نعقل إنها صدرت عن رسول الله.

ولعل أبرز ما استخدمت فيه صناعة الأحاديث هو خدمة الحاكم.

وإذ احتدم الصراع على السلطة، احتدم معه وضع الأحاديث.

فما أن تصارع على وعثمان علي من أحق منهما بالخلافة حتى برز ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) ليقول بالرجعة كما رأينا، محاولا أن ينصر عليا على عثمان.

ثم كان صراع على مع معاوية حول من يكون له الأمر. و إذ كان لعثمان من المهابة والسبق فى الإسلام والعلاقة الحميمة بالرسول والانفاق على الغزوات ما يمكنه من أن يحاول أن يكون منافسا لعلي. فإن معاوية لم يكن يمتلك أيا من ذلك، ولهذا فقد انبرى هو ورجاله فى تعزيز مركزه بالأحاديث المكنوبة.

«والله ما أردتها لنفسى لولا أنى سمعت رسول الله يقول : يا

معاوية أن حكمت فأعدل» هكذا كان معاوية يردد، أما أحد رجاله فقد صنع شيئا أفدح «جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله وقال : يا محمد، استوص بمعاوية خيراً فهو أمين الله على هذه الأمة».

وإذ تكتمل تسع وعشرون عاما ونصف على وفاة الرسول، يصك أنصار معاوية حديثاً مثيرا للدهشة «الخلافة بعدى ثلاثون عاما وبعدها ملك عضوض» وأتوا بالحسن ليتولى شكليا لستة أشهر فتكتمل الأعوام الثلاثون. ويأتى الملك العضوض بنص من حديث مصنوع.

ويقف ابن المقفع فى مجلس معاوية ليفرض البيعة ليزيد فيقول وبلا تردد «خليفة رسول الله هذا (ويشير لمعاوية) فإن هلك فهذا (ويشير إلى يزيد) ومن أبى فهذا وأشهر سيفه فى وجوه الجمع» إنه الملك العضوض.

وما كان الأمر كله إلا صراعا على السلطة بين حزبين، أو إن عدنا إلى لغة الزمان القديم بين بيتين بيت بنى هاشم (علي) وبيت بنى أمية (معاوية). ولعل هذا الصراع كان المسئول الأول عن ابتداع بدعة صنع الأحاديث.

ولقد اتخذ هذا الصراع طابعاً قبلياً ذا غشاء ديني. لكن الجوهر ظل للقبلية. حتى إننا نجد يزيدا بن معاوية إذ ارسل جنده لاخضاع

المدينة المنورة، التى أبت مبايعته، أباح لهم المدينة هى ونسائها وأبكارها لثلاثة أيام. ورفض يزيد أن يقبل منهم بيعه المسلمين لواليهم، وأبى إلا أن يبايعوه بيعة العبيد. فقط يقولون «نبايعك على السمع والطاعة» دون أن يضيفوا الشرط الأساسى وهو «على كتاب الله وسنه رسوله» فهذه بيعة مشروطة تليق بالأحرار. وإذ أرغم سكان المدينة – أبناء وأحفاد الانصار من الأوس والخزرج الذين ناصروا رسول الله ونصروه يوم بدر حتى انتصر على جموع أبى سفيان جد يزيد – أرغموا على بيعة العبيد تهلل يزيد فرحاً، وأنشد:

ليت أشياخى ببدر شهدوا
فزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلـــوا واستهلوا فرحا
ولقالــوا ليزيـــد لا فشـــل

وإذ أتى العباسيون على رماح فارسية وأطاحوا بحكم بنى أمية. سيطر الموالى الفرس على السلطة ووصل الأمر أن دونت الدواوين فى كثير من الأحيان باللغة الفارسية.

ويفزع المتنبى ويعترض على ذلك شعراً متحدثا عن بغداد..

ويغدو الفتى العربى فيها
غريب الأهل واليد واللســان

ملاعب جنه لو سار فيها

سليمان لســـار بترجمـــــان

ويحتاج الموالى الذين يفرضون هيمنتهم على العرب أصحاب الأمر إلى أن يعززوا سلطتهم بأحاديث مصنوعة.

«سئل رسول الله عن الآية الكريمة «فإن تتولوا نول قوما غيركم» من هم هؤلاء القوم؟ فوضع يديه على منكبى سلمان الفارسى وقال هذا الفتى ورهطه، والله لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله قوم من فارس».

ورد العرب بحديث يقول «إذا اختلف المسلمون فالحق فى مضر».

وحتى رواة الأحاديث الجادين فإننا نجد رواياتهم تتضارب فى أحيان كثيرة، بل ويتضارب ما ينسب إلى الراوى الواحد حول الموضوع الواحد مع بعضه بعضا.

فالطبرى - وربما عن عمد - ينقل أربعة أحاديث مختلفة عن بعضها البعض فى موضوع وعن راو واحد هو ابن عباس.

ونقرأ، وندهش.

- حدثنا موسى بن هارون الهمداني، قال حدثنا عمرو بن حماد، قال حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس «جعل ابليس على سماء الدنيا، وكان من قبيلة

من الملائكة يقال لها الجن وإنما سموا بالجن لأنهم خزان الجنة»(٧).

- حدثنا ابن حميد، قال حدثنا مسلمه، قال حدثنا المبارك بن مجاهد عن شريك بن أبى عز، عن صالح مولى التوأمه عن ابن عباس «أن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما»(٨).

- حدثنا عثمان بن سعيد، قال حدثنا بشر بن عماره عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس «كان إبليس من حى من أحياء الملائكة قيل لهم الجن، خلقوا من نار السموم، وكان اسمه الحارث. وأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء وقتلوا بعضهم بعضا، فبعث الله إليهم إبليس ومن معه فى جند من الملائكة، فقتلهم حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه وقال : قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، فاطلع الله على ذلك من قبله»(٩)

- حدثنى على بن الحسن، قال حدثنى أبو نصر أحمد بن الخلال، عن سعيد بن داود عن هشيم، عن عبد الرحمن بن يحيي عن سعدى بن مسعود عن ابن عباس قال : «كانت الملائكة تقاتل الجن، فسبى ابليس وكان صغيرا، وكان مع الملائكة يتعبد معهم فلما أمروا أن

يســجـدوا لآدم ســجـدوا وأبى ابليس. ولذلك قـال الله عـز وجل «إلا ابليس وكان من الجن. (الكهف ٥٠)(١٠)

ولعل مـا سبق - ومثله كثير- هو مـا دفع أبو الحسن الأشعرى إلى القول «اختلف الناس بعد نبيهم (صلعم) فى أشياء كثيرة ضلل فيها بعضهم بعضا فصاروا فرقا متباينين، وأحزابا مشتتين، إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم»(١١).

ويتحدث د. محمد حسين هيكل منتقداً ما كان قائلا أن البعض «أضاف إلى دين الله شيئا كثيرا لا يرضاه الله ورسوله، واعتبر من صلب الدين، ورمى من ينكره بالزندقه، فقد أضافت أكثر كتب السيرة ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه فى ثبوت الرسالة، ولأن هذه الأقاويل قد اعتبرها البعض من صلب الدين فقد رمى من أنكرها بالإلحاد. بل إن العديد من العلماء المسلمين والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم قد اتهموا بالالحاد والكفر»(١٢).

ويتحدث د. هيكل عن كثير من الإضافات، ويتوقف عند الاكثار من الصلاة على النبى فيقول «ذكر أبو البقاء فى كلياته أن كتابة الصلاة فى أوائل الكتب قد حدثت أثناء الدولة العباسية، ولهذا وقع كتاب البخارى وغيره عارياً عنها، وكثرة الأئمة تقول إن الصلاة على النبى يكفى أن يذكرها المرء مرة واحدة فى حياته، لأن الأمر لا

يقتضى التكرار. وهذا بلا خلاف»(١٣).

ثم يقول فى لفتة ذكية «لقد لاحظ الذين درسوا كتب السيرة أن ما روته من أنباء الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعدا عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين»، وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة، تغفل كثيرا مما ذكره أبو الفداء فى تاريخه، وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها»(١٤).

ويؤكد د. هيكل على ضرورة النظر إلى كتب التراث بنظرة انتقادية متمحصة، واخضاعها للفحص العقلى «خاصة وأن اقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلبة. فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سببا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا ما اعتقدوه صحيحا من جهد وعنت» ثم يقول «ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه وجد أن الأحاديث المتداولة تربو على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف. وهذا معناه إنه لم يصح لديه من كل مائة

وخمسين حديثا إلا حديث واحد(أي بنسبة ٦ر٠٪) وأبو داود لم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة، وكذلك شأن سائر الذين جمعوا الحديث»[١٥].

ويقول الدارقطني أن الحديث لم يجمع إلا في عهد المأمون «بعد أن أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكاذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود» والراجح أن الحديث لم يجمع في صدر الإسلام بسبب ما روى عن الرسول إنه قال «لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن، ومن كتب شيئا غير القرآن ليمحه».

.. ويؤكد د. هيكل أن عملية تمحيص الأحاديث وتنقيتها يجب أن تعتمد على العقل خاصة وأن «المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حدا دعا الدعاة فيهم إلى إختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات»[١٦]

* * *

ونأتي بعد ذلك إلى ساحة «الفقه».

والفقه لغة هو العلم بالشئ. وهو معطى إنساني. ولأن العلم بالشئ يختلف من شخص لآخر استيعاباً ورؤية وموقفاً فإنه يكون بالضرورة نسبي الصحة.

يقول أبو حنيفة «كلامنا هذا رأى فمن كان عنده خير منه فليأت

به»٠ ويقول الشافعى «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب»٠

فالفقة يعتمد أساساً على الاجتهاد الإنساني٠٠«ومع انتشار الإسلام فى بلاد مختلفة الثقافات والقصائد والأعراف كثرت وتنوعت الوقائع والحوادث ومن ثم تنوعت الاجتهادات فقد وجدت كل طائفة منهم فى بلاد لها حظها من الحضارة، ولها أعرافها وتقاليدها وكان من ذلك تفاعل فى العقليات»(١٧) ٠٠ وكان المجتهدون الأوائل يعرفون جيدا«أن اختلاف الفقه هو اختلاف فى التلقى وتنوعا ينعكس عن تنوع البيئة والأعراف»(١٨) ومن ثم فقد تعاملوا معه بعقل لا يعرف التعصب٠ ثم تمضى الأيام ليتحول الفقه إلى الجمود ويتحول الجمود إلى الاكتفاء بالنقل عن الأوائل ثم يتحول مع اغفال العقل إلى التعصب٠ ويقول الإمام الشوكانى «فإذا تكلم أحد علماء الاجتهاد بشئ يخالف ما يعتقده المقلدة قاموا عليه قومة الجاهلية، ووافقهم على ذلك أهل الدنيا، وأرباب السلطان ٠٠ وهذا عين الجهل والضلال»٠

والفقه شئ غير الشريعة٠

فالشريعة هى النظم التى شرعها الله، أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان٠ وفيما

يتعلق بالعلاقة بين الإنسان وربه فإن التعاليم راسخة وأبدية لأن ضوابطها آلهية. أما علاقة الإنسان بالبشر والمجتمع فهى تتعلق بالواقع المعاش زمانا ومكانا وهنا ينطبق عليها ضوابط فقهية منها «ما يتناهى لا يضبط ما لا يتناهي» و«حيث تتحقق مصلحة الناس فثمة شرع الله».

ومن ثم فقد لجأ الفقهاء دوما إلى القياس والاستحسان والمصالح المرسلة.. والإجماع.

لكن مسألة القياس التي يتعين عليها أن تعتمد على إعمال العقل كانت أيضا محل خلاف فالخليفة المتوكل مثلا استند فى معركته ضد المعتزلة على الحنابلة وأمر الناس بالتسليم والتقليد معلنا «إياكم والقياس، قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم، إياكم والتعمق فإن من كان قبلكم هلك به» وكأنه كان يصيح بهم إياكم وإعمال العقل. والحقيقة أن البعض كان وربما لم يزل، يعتقد كما اعتقد المتوكل ورجاله أن «ما يبدعه العقل هو ابتداع، والابتداع بدعة، والبدعة ضلالة، والضلالة فى النار»(١٩)

كذلك فإن الأخذ بالاجماع يثير أسئلة شتي. اجماع من؟ ومتي؟ وفقهاء أى عصر؟

ويبقى الفقه صناعة إنسانية، ولهذا يقع فيه الخلاف والاختلاف.

وهذا طبيعي، ومقبول، وضروري.

لكن الفقه هو تعبير عقلى عن واقع يتغير باستمرار، ومن ثم فإن تجميد الفقه عند عصر معين يغلق باب الاجتهاد ومن ثم يغلق باب العقل.

ويستند دعاة التجديد الدائم فى الفقه إلي حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله أنه قال «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها».

وهو ما يشرحه السيوطى قائلا «إنه على رأس كل مائة سنه يبعث الله داعية يقوم بتجديد الدين» ويقول أن المائة سنه ليست شرطا فلقد يأتى من يجدد بشكل متلاحق، وقد يأتى أكثر من مجدد فى زمان واحد(١٩).

ويتحدث الشيخ أمين الخولى عن ذات الموضوع قائلا «فإذ تحدث أصحاب القديم عن التجديد، وبدأ حديثهم هذا مبكراً منذ حوالى القرن الثالث الهجري، لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ولا اعتراض لمعترض. ولم تعد فكرة التجديد بدعاً من الأمر يختلف الناس حوله... ولا يضيع الوقت والجهد فى تلك المهاترات التى تكثر وتسخف حول كل محاولة جادة لدفع الحياة الدينية والاجتماعية إلى ما لابد لها منه من سير وتقدم وتطور ووفاء بما يجد دائما من

حاجات الأفراد والجماعات»[٢٠].

وهو يحدد ما يعنيه بالتجديد قائلا «فإذا كان المجدد متطوراً مع الحياة فمعنى ذلك أنه يقدر تغيرها فى سيرها إلى غدها، ويعمل على جعل الدين مسايرا لها فى السير، موائما لحاجتها فيه، فالتجديد هو تطور، وهو ليس إعادة قديم كان، وإنما هو اهتداء إلى جديد لم يكن بعد»[٢١].

وهو يؤكد التزامه بالعلم ومستحدثاته «فإذا كان العلم اليوم وغداً يجد فى الميادين الطبيعية تطوراً فإن الإسلام يدعه يمضى فى ذلك إلى أقصى ما يصل إليه من مقررات مادية وعملية وفلسفية، وراحة الإسلام هى فى ألا يتورط فى التفاصيل ويدع العلم يخب فى طريقه معلنا مقدماً إنه مستعد لتقبل كل ما يجئ به العلم من ذلك.

ولا يحتاج الدين إلى التعرض لشئ من مقررات العلم اليوم أو فى الغد البعيد، مع انطلاق العلم ذلك الانطلاق الجبار الذى لا يعترف بمناطق ممنوعه، ولا حدود حاجزه تعوقه عن محاولة المعرفة بكل ما لديه وما سيبتكره من وسائل ومعاونات»[٢٢].

ويقول «إن التجديد الدينى هو تطور، والتطور الدينى هو نهاية التجديد الحق»[٢٣]. ثم يحلق الشيخ الخولى ليسأل سؤالا مثيرا للدهشه «عن إمكانية تطور العبادة، فالأجهزة المتلقية تذيع الصلوات

الجامعة من جمعة وعيد، فماذا يكون حكم الاقتداء بها بواسطة هذه الأجهزة، وفيها واسطة حاضرة مشهودة كالتليفزيون، يرى فيه المصلى من حال الإمام وحركاته ويسمع من صوته ووعظه ما لا يستطيع أن يراه بكل صعوبة فى مسجد الحي»(٢٤).

ثم يقول «ان من أجدى ما قدم المجددون للحياة الدينية هو فهم الدين على إنه إصلاح للحياة، لا طقوس وأشكال» ويذكرنا أن عمر بن عبد العزيز رد على من طلبوا منه كسوة الكعبة قائلا «انى رأيت أن اجعل ذلك فى أكباد جائعة، فإنها أولى بذلك من الكعبة. وأن الشافعي أمضى ليلة مضجعا يفكر فى مسألة فقهية عملية مؤثرا ذلك على الصلاة»(٢٥).

ويسير فى نفس الاتجاه د. محمد الدسوقى إذ يقول «إن التجديد لا يتحقق بالخيال والأمانى وإنما يقوم على الجهد والعلم، ومن يستقرئ تاريخ الاجتهاد فى حياة الأمة يلاحظ أن هناك علاقة عضوية بين ازدهار الاجتهاد الفقهى وتقدم الأمة وقوتها» ذلك أن الاجتهاد هو القوة المحركة فى الإسلام، ومادام الاجتهاد الذى هو مناط التجديد مناط القوة للأمة وقوتها فإن التجديد يصبح فريضة»(٢٦).

ومهما أطلنا وتأملنا نكتشف حاجتنا على العقل وإعماله فى ديننا

ودنيانا، وأن نرفض النقل، وإن نجدد ديننا مع تجدد حياتنا..

ونستمع إلى الشيخ محمد الغزالى مؤكدا «القرآن خطاب الزمان كله، حتى يرث الله الأرض وما عليها، خطاب الأجيال والأجناس والعلماء والمستويات الحضارية المتفاوته، ولا يمكن منطقيا أن نجمده عند فهم عصر معين»(٢٧).

ومن قبل قال قاسم أمين «يجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم ونرجع إليه، ولكن لا لننسخ منه صورة، ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب إنحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ينتفع به اليوم، وفيما نستقبل من أيام. أن تمسكنا بالماضى هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها لأنه ميل يجرنا إلى التدنى والتقهقر، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا وبما يمكن أن تستقيم به مصالحنا، كأن كلا منا يناجى نفسه قائلا لها اتركى الفكر والعمل والعناء واستريحى فليس بالإمكان أن نأتى بأبدع مما كان. هذا هو الداء الذى يلزم علينا علاجه، وليس له من دواء إلا أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا

على أصلها وفرعها وآثارها»[٢٨].

وقال الأمير شكيب أرسلان «أما أسباب انحطاط المسلمين فليس الإسلام كما يدعى كتاب الغرب المغرضين بل هو الجهل، والعلم الناقص، وفساد أخلاق الحكام والرعية، وتزلف العلماء إليهم، وإصابة الناس بالجبن والهلع، واستبداد اليأس والقنوط فى نفوسهم، ونسيان ماضيهم التليد، وجمودهم على القديم من تراثهم، ورفض تعديل أصول التعليم الإسلامى ظنا منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار»[٢٩].

وفى محاضرة له قال د. عزيز العظمة «إن موضع الاعتلال فى النظر لواقعنا كان كامنا فى توهم الثبات، والقول بأن اليوم يستخرج من مكامن ذاتنا العربية عند البعض والإسلامية عند الكافة» ثم يؤكد «أننى أذهب جازما إلى القول بأن الاعتقاد بعصور ذهبية عربية أو إسلامية ينبغى استعادتها، ويبتغى بعثها، هذا الاعتقاد كان ولايزال موضع الاعتلال الأساسى فى حياتنا الفكرية والوجدانية والسياسية، وكانت لعنة الماضى المجيد هذه من الأمور الباعثة على قيام السياسة العربية -فى قطاعات واسعة منها - على الأهواء والتمني، وعلى الإعراض عن الواقع»[٣٠].

وإذ نصل إلي هذا المرتقى فى فهمنا للنص وكيفية التعامل معه،

وللفقه وحجيته، والتجديد وضرورته فإننا نكون قادرين على أن نتواصل مع ضرورة إعمال العقل، وفتح كل أبوابه، فى كل مجالات ديننا ودنيانا، بحيث لا يكون عليه من قيد سوى العقل ذاته. مدركين الحكمة المصرية الحكيمة والعميقة المغزى إذ تؤكد أن «ربنا عرفوه بالعقل».

الهوامش

(١) ابن الأثير- الكامل في التاريخ - ج٣ - ص٧٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإمام ابن جرير الطبري- الجامع لأحكام القرآن- ج١- ص٢٠٠.

(٤) أحمد أمين - ضحى الإسلام- ص٣٨٥.

(٥) المرجع السابق- ص ٣٨٥.

(٦) المرجع السابق- ص ٣٨٧.

(٧) الطبري- تاريخ الأمم والملوك- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-ص٨١.

(٨) المرجع السابق- ص ٨٢.

(٩) المرجع السابق- ص٨٤.

(١٠) المرجع السابق، ص ٨٧.

(١١) أبو الحسن الأشعرى - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين- ص٢٠١.

(١٢) د. محمد حسين هيكل- حياة محمد- مكتبة الأسرة- (١٩٩٨)- ص٢٩.

(١٣) المرجع السابق- ص٥٢.

(١٤) المرجع السابق- ص ٥٣.

(١٥) المرجع السابق- ص٥٤.

(١٦) المرجع السابق - ٥٦.

(١٧) د. محمد الدسوقي- التجديد في الفقه الإسلامي- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (٢٠٠٢) - ص ١٨.

(١٨) المرجع السابق- ص ٣٠.

(١٩) د٠ جابر عصفور –قراءة فى ابن المعتز– مجلة فصول– ج٦ – ص١٠١٠
(٢٠) جلال الدين السيوطي– التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة٠
(٢٠) الشيخ أمين الخولي– المجددون فى الإسلام – مكتبة الأسرة (٢٠٠١) ٠ ص١٠
(٢١) المرجع السابق– ص٣٦٠
(٢٢) المرجع السابق – ص ٣٨٠
(٢٣) المرجع السابق– ص ٦٦٠
(٢٤) المرجع السابق– ص٦٢٠
(٢٥) المرجع السابق– ص١٦٠٠
(٢٦) د٠ محمد الدسوقى – المرجع السابق– ص٥٠
(٢٧) الشيخ محمد الغزالي– كيف نتعامل مع القرآن – (١٩٩٢)–ص١٦٤٠
(٢٨) قاسم أمين – الأعمال الكاملة– ج٢–ص٢٠٢٠
(٢٩) الأمير شكيب أرسلان– لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ – بيروت – ص ٨٨٠
(٣٠) د٠ عزيز العظمة – محاضرة ألقيت فى معهد العالم العربى – باريس ١٥–١–١٩٩٣٠

«فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»

«وليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء»

«أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»

«إدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن

ضل عن سبيله وهم أعلم بالمهتدين»

«إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا»

صدق الله العظيم

١١ سبتمبر.. ليست بداية
وليست نهاية

ومع تغير الزمان والمعطيات، يتجدد الجميع- أقصد جميع من يتصورون عالما أفضل، ومستقبلا أفضل لدينهم ودنياهم بينما يتصور البعض أن التجديد هو ارتداد الخلف. العودة إلى الماضي. فالعصر الذهبى ليس فى الآتى وإنما فى الماضي.

وليس هذا - للانصاف- من اختراع أحد من هؤلاء الذين سنتحدث عنهم، ولا هو اختراع للسلفيين. فالفلاسفة الرومان واليونان كانوا يعتقدون أن العصر الذهبى للإنسانية قد تحقق فى الماضي، ثم انحط الإنسان بلا قدرة له على القيام من جديد سوى باستعادة قيم ومثل الماضي.

وفى العصور المسيحية الوسطى كانت فكرة الخطيئة الأصلية والمفترضة دوماً تلجم العقل وتفزعه ، وتدفعه إلى رجاء العودة إلى الأصل، ذلك الأصل النقى من أية خطايا.

ثم جاءت الدعوة إلى التطلع نحو المستقبل بالاستناد إلى العلم والعقل، وهى ما اسميت بالدعوة للتقدم على يد المفكر كوندرسيه

Condorcet (١٧٤٣ –١٧٩٤) فى كتـابه المعنون «تقـدم العـقل البشري»(١)

كذلك فإن هذه الفكرة قد وجـدت ومنذ أمـد طويل فى صـفوف السلفيين الإسلاميين ونقرأ «إذا كان التاريخ هو ما تعيه الذاكرة الإنسانية عن الماضي، فإن هذا الماضى يظل بالنسبة للبعض أملا يتعين الارتداد إليه، وبالنسبة لبعض المسلمين سيظل العصر الإسلامى الأول صورة وحيدة لما يجب أن يكون عليه العالم»(٢).

ولعله كان من الضرورى أن نبدأ فى حديثنا عن أحداث ١١ سبتمبر وأصحابها المفترضين أو هم علي الأقل الوحيدين الذين أيدوها ومنحوها بركاتهم واعتبروها نصراً مبيناً (بن لادن– طالبان– أيمن الظواهري) بهذه العبارات عن الشغف بالارتداد إلى الماضي. فقد كان هذا الثالوث هو النموذج للفكر والموقف الارتدادي. سواء فى الرؤية أو فى استعادة القيم أو حتى اللفظ والملبس.

ولعل أحداً لو شاهد وسمع واحداً من هؤلاء ولم يتعرف على هويته لاعتقد إنه يشاهد فيلما سينمائيا تجرى فيه عملية تشخيص لشخوص عاشت منذ قرون سحيقة سواء فى الملبس أو الألفاظ أو فى القضايا المطروحة والموقف منها.

على أية حال. وفيما كان العالم كله يهتز تحت وطأة متغيرات

متلاحقة ، وثورات علمية وتكنولوجية مندفعة أماما بصورة مذهلة.
وفيما الحديث يجرى عن العولمة، وعن الهندسة الوراثية والاستنساخ والتطور التكنولوجي المذهل، وفيما كان البعض يحاول أن يستدرجنا عامداً متعمداً إلى ما أسماه «صراع الحضارات» أو «نهاية التاريخ»، وفيم الناس جميعا، أقصد الناس الحريضين على مستقبلهم ومستقبل أوطانهم يندفعون مع الجديد، كان الثالوث الذى أثمر وأنتج أو علي الأقل هلل وبارك ما حدث في١١ سبتمبر غائبا عن الجديد، عازلا نفسه عنه (إلا فى إطار استثمار مستحدثاته لتحقيق ما يخطط له من عمليات إرهابية).

ولعله كان يستثمر الموقف السلبى تجاه كل ما يجرى فى اثبات وتحقيق المزيد من «الاغتراب» عن هذا العالم الجديد على نفسه وعلى أتباعه وأتباع أتباعه.

ومن هنا نكاد نقول أن حدث ١١ سبتمبر.. هو أو أى شبيه له، أقل أو أكثر خطراً كان محلقا فى سماء هذا الثالوث المتأسلم منذ أمد ليس بالقصير، ولعله فقط كان ينتظر التخطيط والتوقيت.

وهذا الجديد المندفع فى جدته كان بذاته كما قلنا مدعاة لإيقاظ أشد النزعات الإرتدادية وأعنف أشكال العنف.

ونتأمل فى عجالة بعض ملامح هذا الجديد.

قلنا أن العالم تعرض لحركة تغيير جارفة فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والمعرفة والعلم والتكنولوجيا، وعرف ثورات عدة تلاحقت في مجالات عديدة : ثورة الاتصالات، الهندسة الوراثية، الاستنساخ، القطب الواحد، ومع التغير المحموم تنشأ ثنائيات أو بالدقة متناقضات جديدة، فإذ يتعاظم شأن التكنولوجيا والمعرفة العلمية وثورة الاتصالات وإذ يجرى تسريع التطوير للعملية الإنتاجية لتحقيق وفرة فى المنتجات والأرباح.

وإذ ينكمش العالم (يقولون أنه أصبح قرية) أمام سطوة التكنولوجيا. فإن التكنولوجيا التى تعدنا بوفرة إنتاج تهددنا بانتشار البطالة (ولا تحل تداعيات البطالة مجتمعيا بمجرد تقديم إعانة).

كما إنها تهددنا بتدمير الكوكب عبر تدمير البيئة، وتهددنا بانتهاء صلاحيته كوعاء صالح للحياة (تجاهل أمريكا تنفيذ مقررات قمة البرازيل وما تلاها من قمم البيئة).

لكن هذا التناقض يتناقض مع ذاته عندما يبدأ العلم فى «تخليق» الحياة ذاتها (الهندسة الوراثية – الاستنساخ – الذكاء الاصطناعى – الانطلاق إلى عوالم أخرى إلخ)..

ويجرى – ومنذ مدة ليست بالقصيرة – التبشير على نطاق واسع

بفكرة «العولمة» التى تقوم على أساس استحسان معايير محدده ومحاولة تعميقها حتى لو أدى الأمر إلي استخدام القوة.

لكن التناقض يكمن فى أن «العولمة» تفرض نفسها لحساب طرف واحد وعلى حساب الآخرين، بل وحتى على حساب «الأمم المتحدة» صاحبة الصولجان الرسمى للعولة، كما إنها توجه ضربات لفكرة جوهرية هى : «الدولة ذات السيادة» بحجة فرض معايير عالمية في مجالات مثل حقوق الإنسان والديمقراطية. .إلخ. وهكذا تستخدم مقولات مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان لاخضاع الإنسان في دول الجنوب لسطوة دولة واحدة. كما أن العولمة كفكرة وكمحتوي تفسح بذاتها المجال أمام الحديث عن عولمة مضادة ربما عبر عنها أيمن الظواهري عندما قال «انقسم العالم إلى فسطاطين فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر». وتنبع فكرة العولمة المضادة أيضا من الطموح لاستعادة «الخلافة» والخلافة في رأي دعاتها خلافة واحدة موحدة علي نطاق العالم. ومن ثم تكون مجرد عضوية الفرد في تنظيم متأسلم انتماء إلى محتوى عالمي يسعي لتحقيق هدف عالمي، هو قيام الخلافة.

ونجد أن «العولمة» (سياسيا) تترجم اقتصاديا إلى الجات وآليات السوق. التى تستند إلى فلسفة الآليات المسيبة لنفسها بنفسها

Self-Reduiatory في مواجهة فلسفة الآليات التى تفترض ضرورة تدخل الإنسان للتخطيط أو تصحيح أو توجيه المسار -Man Regulated بينما تحاول الولايات المتحدة أن تفرض أى أن تتدخل فى مسار العملية السياسية /الاقتصادية/ الاجتماعية فى بلدان عديدة مستندة أيضا إلى فكرة العولمة.

لكن فكرة أحادية القطب تتلقى اعتراضات أو معارضات شديدة من جانب أوربا (التى تفترض أن توحدها هو سبيل لتعددية قطبية جديدة) ومن جانب روسيا(التى تقاوم كى تستعيد ما كان دون جدوي) أو تسعى إلى تحالفات جديدة (ربما) مع الصين التى استعادت هونج كونج لتزداد قوة وانغماسا فى المجتمع الرأسمالى مقدمة نموذجاً جديداً ليس له مثيل فى عالم الأمس. لعله يفتح صفحة جديدة تسيطر عليها علامة استفهام كبيرة تطرح أمام العالم مستندة إلى البساطة الصينية الغامضة تقليدياً، صفحة تسطر فيها نظاماً سياسياً شيوعياً ينمو فى ظله نظام اقتصادى ينغمس أكثر فأكثر فى الآليات الرأسمالية.

وهكذا تأبى الصين إلا أن تضيف إلى قاموس التغيير الملئ بالتناقضات ، متناقضات جديدة.

كذلك فأننا نشهد عمليا تغيراً فى الأدوار بين الشمال والجنوب.

أو إن شئنا الدقة تغيراً فى الأزياء. فالماضى كان يمنح الجنوب صفات مبهرة : حركة التحرر الوطني- المطالبة بالديمقراطية - حركة الجماهير الشعبية - الدفاع عن حقوق الشعب- التطلع إلى مستقبل مبهر لوطن سيستقل ويتحرر وينطلق . بينما كان الشمال يتشح بزى القهر الاستعماري- الاستغلال - الظلم- السعى نحو الحرب.

الآن تتبدل الأزياء: الشمال: رخاء- ديمقراطية- ضغط على الجنوب من أجل العدالة والديمقراطية وحقوق الإنسان. (الشمال الاستعمارى هو المدافع عن الحرية.. أليس هذا غريبا؟). الجنوب : فقر- صراعات عرقية ذات طابع وحشى - فوضي- فساد- ديكتاتورية- مسخ لآليات الديمقراطية .. إلخ.

وتبدل الأزياء أو بالدقة تبادلها ليس مجرد مظهر ظاهري، بل هو واقع يتسم أحيانا بايحاءات مثيرة للحيرة أمام ما ينتظر إنسان هذه المساحات الجنوبية من مستقبل أو بالدقة «لا مستقبل» مظلم.. بل وشديد الإظلام.

ولعل هذا يفتح الباب متسعا أمام التدخل فى الشئون الداخلية للبلدان الأخرى (وهى شئون لم تعد تمتلك سوى احترام قليل بالنسبة لكثير من دول الجنوب).

ويتمدد عبر هذا المنطق فى تبادل الأزياء قصة المنظمات

والجمعيات غير الحكومية، التى أصبحت تكتسب اهتماما كبيرا كمعابر لتدخل أو تداخل الشمال فى شئون الجنوب.

إن الجمعيات غير الحكومية قد أصبحت تثير هواجس كثيرة داخل الفئات المثقفة في بلادنا.

فأحيانا ينظر إليها بعض الحكام، أو المنظرين العاملين فى رحابهم كبديل للتعددية الحزبية التى تعانى بالضرورة من حالة قزمية مزمنة. وتقوم الفكرة على أساس أن برنامج الحزب السياسى المعارض يمكن تفكيكه إلى «قطع غيار» منفصلة : حقوق الإنسان (جمعية للدفاع عنها).. محو الأمية (جمعية للقيام بها) وهكذا مع الديمقراطية : - ضمان انتخابات نزيهة- حقوق المرأة- حقوق الأقليات العرقية- الحقوق المتكافئة فى المجتمعات متعددة الديانات، إلخ. وبما أن السيارة لا يمكن أن تنطلق إلى الأمام إذ فككتها إلى قطع غيار، فإن هذه الجمعيات مهما نشطت ومهما استجمعت من عضوية ونشاط ستكون عاجزة تماما عن مواجهة متطلبات التغيير السياسي، لأسباب عدة منها افتقاد قوة الدفع. عدم تجميع القوى والمعطيات، أن هذه الجمعيات ينحصر نشاطها فى جزئيات وهى ممنوعة بحكم قانونها من الفعل السياسي، ومن ثم التغيير السياسي. أنها تستنفذ طاقات أعضائها فى بقعة محاصرة

ومحصورة وتحرمهم بحكم التكوين، وأيضا بحكم القانون من النظر نحو تغيير جذرى شامل أو حتى معارضة جذرية شاملة. لكن الأكثر خطرا يكمن فى ذلك التمويل المتدفق على جماعات وجمعيات العمل الأهلي. أحيانا بمقولة أن البلد فقير. ينهبه الجالسون فى القمة. لكن الأمر تحول فى حالات محددة إلى وباء.. وكالعادة استخدم المتأسلمون ذات الآلية. فأقاموا شبكات دولية للتمويل متسترة بمسيميات مغرية تماما كما فعل البعض في الغرب. ولكى نكون واضحين فلسنا ضد منظمات المجتمع المدني بل هي ضررية وبالغة الأهمية لكننا يجب أن نفحص بحذر وتدقيق موضوعات مثل: الحرص علي الا تكون هذه المنظمات معوقا للعمل السياسي. والحرص من أثار التمويل الأجنبي.

كما إن الجنوب الذى يجد نفسه ملفوظاً وفقيراً وبلا أى مستقبل.. والذى تتردى أحواله فى متواليات هندسية يجد نفسه بالضرورة مسرحا لعنف عرقي وديني يتخذ طابعاً وحشياً. وتنمو فيه نوازع صراعات نحو مسارات متراجعة. الشمال ينطلق نحو المستقبل بصورة متسارعة، بينما الجنوب يسرع نحو الماضي. الفجوة تسع بشكل لم يسبق له مثيل، وهذه الفجوة ستمثل خطرا حقيقيا على مستقبلنا جميعا. فهل سنسمح لكوكبنا أن ينقسم

أنقساما واقعيا بين إنسان يمتلك العلم وينطلق به نحو آفاق من التقدم غير المتناهى وبين بشر ينحدرون ليحيوا وأحيانا يتصرفون مثل القردة بلا منطق وأحيانا بلا عقل، فأى كون هذا ٠٠ وأى مستقبل٠

وكان هذا الثالوث المتأسلم يتربص هو وأمثاله بهذه الصراعات ليتداخل فيها بزعم دفاعه عن الإسلام والمسلمين مكتسبا من ذلك نفوذا وسطوة وتمويلا وتمددا عبر العالم ، بينما غبار المعارك يخفى عن أعيننا هذا الخطر٠

ويبقى أن نشير إلى تأثير المتغير الاقتصادى فى الواقع السياسي٠٠ فالشركات متعددة الجنسية إذ يتعاظم دورها ونفوذها وتأثيرها، تمتلك وبصورة متزايدة نفوذا قد يفوق أحيانا نفوذ الدولة٠

وهكذا فإن سلطة الدولة إذ تتعاظم (فى عالمنا الثالث) على جماهير شعبها، فإنها تنكمش وتزداد انكماشا إزاء تداخل الشمال فى سياستها الداخلية٠٠ ويضاعف من ذلك تداخل الشركات العملاقة في شئونها وأحيانا فى اختيار حكامها وحكوماتها، واشعال صراعاتها العرقية والقبلية والدينية، كل ذلك فى إطار أنانية متجردة من الإنسانية ٠

كذلك فإن هذه التداخلات الخارجية، مضافا إليها محاولات

التأثير الخارجى وممكنات هذا التأثير المتزايدة تدفع شعوبا عديدة من بلدان الجنوب إلى الانكماش داخل قوقعتها الذاتية، وإلى التشبث بتراثها القديم.. وفي كثير من الأحيان الارتداد السلفى نحوه، بما يشجع النزاعات الدينية والعرقية التى قد ترتدى ثياب الدفاع عن الذات وصيانتها من «الغزو» الثقافى والفكرى للأجانب (أعداء الدين.. أو أعداء التقاليد الوطنية سيان).

ثم نأتى إلى حقل الألغام الذى خاض فيه البعض دون ترو فى بعض الأحيان، وبعمد متعمد في أحيان أخرى وهو ما أسمى «صراع الحضارات».

وقد نشأت هذه الفكرة من القول بصراع محتمل أو مفترض بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية. وتلقف البعض هذه الفكرة لينفخ فيها لتصبح مثل بالون قابل للانفجار. وتوالت الأقوال والأقوال المضادة لتفتح أبواب جهنم. ولعل أكثر من استند إلى هذه الفكرة الغربية المنشأ هم أقطاب هذا الثالوث المتأسلم فقد كانت فرصتهم السانحة لتأكيد فكرتهم الخاطئة بأن دويلتهم وحدها هى ديار الإسلام وأن كل من عداها ديار حرب، وأن العالم قد انقسم إلى «فسطاطين فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر».

ولعل من الضرورى قبل أن نشرع فى الحديث عن انعكاسات هذه

الفكرة أن نبدأ فى رؤية تحليلية للمعنى الكامن فى كلمة حضارة.

فى القاموس to civilize تعنى الخروج من الحالة البربرية، والعمل على بناء دولة كاملة التنظيم، أما Civilization فتعنى مرحلة متقدمة من التطور الاجتماعي(٣)

وفرويد له تعريف مشهور يقول «الحضارة هى جملة الإنجازات والقواعد التى تميز حياتنا عن حياة أسلافنا والتى تنشد تحقيق هدفين : حماية الإنسان من الطبيعة، وتأسيس علاقات متبادلة بين الإنسان وأخيه».

ولعل التعريف الأشمل و الأكثر دقة هو ما أتى به د. مراد وهبه «الحضارة هى الحالة المقابلة للفطرة، وتطلق على جملة مظاهر للتقدم الأدبى والفنى والعلمى وهى مظاهر تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة»(٤)

وهكذا فإن «الحضارة» هى محتوى تاريخى ، دينى، جغرافي، فكري، علمي، أدبي، ثقافي. وهى محتوى ذا طبيعة تراكمية تتراكم جيلا بعد جيل وتنعكس عنها معطيات فكرية وعقلية وأساليب فى الحياة والتعاملات والقيم وحتى الأزياء وطرق التعبير والفنون..إلخ. وهى تراكمات تتم عبر مفهوم فلسفى ينصهر فيها القديم مع الجديد، الأصيل مع الوافد، السلبى مع الإيجابي، التراث

مع المستحدث، ينصهر فى وعاء واحد جدلى التكون، مستمر الفعل والتأثر ليحقق سبيكة مستديمة التطور لكنها متمايزة عن غيرها، إنها تعبير عن معدة كبيرة ذات عمق تاريخى يلتهم المكونات المختلفة والمتناقضة أحيانا ليجرى عليها وبها عملية بيولوجية تسمى «التمثل» أى الهضم والامتصاص للجديد حتى يصبح جزءا مندمجا مع النسيج الأصيل المتجدد دوماً.

ثم نأتى بعد هذا التعريف إلى الحديث عن الأطراف المفترضة لهذا الصراع. لدينا طرف معروف مسبقا هو «الحضارة الغربية» فمن هو المرشح كى يكون الطرف الآخر؟ مقابل «الغرب» والغربى هو الشرق والشرقي. لكن المقصود فى الحديث عن هذا الصراع ليس حضارة شرقية فما لنا وحضارة الصين أو الهند، أو اليابان؟ بل أن بعضا من هذه الحضارات فضلا عن خصوصيتها الخاصة جداً تعتبر نفسها بفضل ما أحرزت من تقدم تكنولوجى جزءاً من الغرب الذى أصبح يسمى الشمال.

المقصود تحديدا هو ما أسمى «الحضارة الإسلامية». لكن المقابل المنطقى للإسلامية هو المسيحية، وهنا تلتهب الكارثة إذ تمتطى القوى المتأسلمة فى العالم هذا المصطلح لتروج لفكرة الصراع الحضارى ضد الاستكبار المسيحى العالمي. وهو ما

استندت إليه عملية ١١ سبتمبر. وما تفجر عن هذا الفهم المروع من أحداث قبل ١١ سبتمبر وبعده فى بلدان تمتلك ثنائية أو تعددية دينية (مصر- السودان- اندونيسيا- نيجيريا- إلخ).

وإذ نعود إلى التعبيرات وإلى المحتوى نجد أن تحليل كلمتى «حضارة إسلامية» يقتادنا أما إلى فهم غير علمى لكلمة «حضارة» أو فهم غير دينى لكلمة «إسلامية».

فالإسلام المعتقد جاء للناس جميعا، للعالمين. وجاء لكل زمان، ولكل مكان.

فإذا تصورنا فحصا للمحتوى الحضارى لبلد كمصر (بعمقها الفرعوني- الإغريقي- الروماني- الفارسي- المسيحى -الإسلامي- العثماني- المملوكي..إلخ)

وأضفنا إليه البعد الديني، وفحصنا بالمقابل وبذات التحليل الزمانى والمكانى بلدا كاندونيسيا أو إيران أو تشاد أو باكستان لكان من المشروع تماما أن نسأل هل: مصر + الإسلام = إيران + الإسلام = اندونيسيا + الإسلام؟

تماما كما نسأل هل فرنسا + المسيحية = ألمانيا + المسيحية = البرازيل أو الدومينيكان أو كولومبيا + المسيحية ؟. ثم أن هناك سؤالا أكثر مرارة يطلع علينا عند إقرارنا لفكرة الصراع

«الحضاري» بين الإسلام والمسيحية.. فى أية خانة سنضع مسيحيي مصر وفى أية خانة سنضع مسلمى فرنسا؟ وفى أية خانة سيضعوا هم أنفسهم؟

إن الدين هو واحد من مكونات الحضارة وليس مجرد صبغة يصطبغ بها ظاهر الحياة فى كل بلد.

ولعل الأجدر بنا أن نتحدث عن الحضارة المصرية أو الحضارة الفارسية أو الحضارة الطورانية (تركيا).

لكن الثالوث المتأسلم (طالبان– بن لادن– أيمن الظواهري) وجدوا فى هذا اللغم الغربى الصنع فرصة أو وسيلة لتديين الصراع العالمي. ولعلهم وجدوها فرصة لتعبئة المشاعر الشاردة والمفعمة باللاوعى الاجتماعى والسياسى ليخوضوا معركتهم ضد «الحضارة» المعادية مستندين إلى تأجيج المشاعر الدينية باتجاه خاطئ.

* * *

والآن هل لنا أن نتأمل المعطى الفكرى والمكون الإيديولوجى لهذا الثالوث الذى نبتت من بين براثنه أحداث ١١ سبتمبر؟

ونأتى أولا على ذكر واحد من الآباء أو الدعاة الأول لهذا النوع من التأسلم الحديث هو «شكرى مصطفي» الذى أسمى نفسه «أمير آخر الزمان» وأسمى جماعته «الجماعة المسلمة» والتى اسميت

إعلاميا «جماعة التكفير والهجرة» والذى شرب من بئره المريرة أيمن الظواهرى ومن هم على دربه.

يقول شكرى مصطفى وسوف نمضى معه سريعا فهو مجرد مثال «الإسلام الحق هو الذى تتبناه الجماعة المسلمة وهو ما كان عليه الرسول وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط، وبعد هذا كله لم يكن ثمة إسلام صحيح على وجه الأرض حتى الآن » «فالإسلام ليس بالتلفظ الشهادتين ولكنه إقرار وعمل ومن هنا كان المسلم الذى يفارق جماعة المسلمين كافرا» وإن «كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا»(٥) (أليست ذات الفكرة التى قالت : انقسم العالم إلى فسطاطين..؟).

وقبل ذلك بقليل وفيما كان شكرى مصطفى يؤسس جماعته فكريا وتنظيميا أصدر كتاب «التوسمات» (وقد ظل مخطوطا لأن المطبعة فى نظره عتاد كافر. رغم إنه قتل الذهبى بمسدس وهو أيضا عتاد كافر).

وفى «التوسمات» يقول «لابد من سلوك طريق النبى وأصحابه شبرا بشبر، وذراعا بذراع لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده بصورة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، وهى : كما بدأ الإسلام يعاد»(٦).

والعنف وسيلة مأمور بها فى نظره، فتفسيره للآية «بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فإذا هو زاهق» يقول «إن الله لم يضع الحق على الباطل، بل يقذفه ، أى بقوة وبشدة فإذا هو زاهق»(٧).

ثم «وقد ورد فى الحديث الشريف قل أعود بالله من علم لا ينفع، وكانت جماعة محمد تتعلم هذا الدين. لا تتعلمه لمجرد العلم ولا تتعلمه للدنيا ولكن تتعلمه للتطبيق والعلم والعبادة. فالعلم وسيلة لعبادة الله، وكل علم يتعلمه الإنسان لغير عباده الله فقد تعلمه لنفسه وتعلمه لغير الله، وهذا شرك»، ومن هنا «فإن تعلم الطبيعة والكيمياء والرياضيات والهندسة وغيرها من العلوم ما عدا الفقه والحديث واللغة العربية حرام بل وشرك بالله» (٨) فالعلم الحديث فتنة «فالله سبحانه يقول وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون، ومن ثم فإن كل ذرة تعلم يقصد بها غير هذه الغاية أى العبادة هى ذرة خارجة عن العبودية مضافة إلى التأله فى الأرض بغير الحق، فالأمة الإسلامية أمة أمية، قال رسول الله: نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، خير أمة أخرجت للناس أمة أمية. ونحن كذلك لا نقرأ ولا نحسب إلا بقدر الحاجة»(٩).

والحاجة هنا تتحدد وفق طبيعة المعركة ضد الطاغوت فالمسدس استخدم فى اغتيال الشيخ الذهبي. والطائرات فى تدمير برجى

نيويورك. .سيان.

وحالة العداء للمدنية الحديثة ومفرداتها متمكنة عند شكرى مصطفى «يستحيل التوفيق بين تلك المدينة المبهرة وبين عبادة الله. يستحيل التوفيق بين بذل العمر فى صنع هذه المدنية الرائعة والدنيا العريضة المزخرفة وبين عبادة الله. فهذه المدنية الحديثة ليست سوى صنم معبود أقامه المكر الشيطانى لصرف الأنظار عن عبادة الله»(١٠)

ثم نصل إلى عبارة مهمة أرجو أن نتأملها حرفا بحرف ونتأمل الحالة النفسية التى تتكون من خلالها «يا لها من لحظة رائعة أن يترك الله أعداءه ليبنوا ويؤسسوا ويشيدوا ويرتعوا ويعدوا وينفقوا ثم يأتيهم من حيث لم يحتسبوا فيدمر عليهم ما بنوه وما شادوه، وبقدر بنيانهم يكون دمارهم. ويا للحكمة الربانية والكيدالمتين»(١١)

مرة أخرى نتأمل العبارة ونسأل : ترى هل فكر الثالوث المتأسلم بذات المشاعر وبذات الأحاسيس وربما بذات الألفاظ عندما تم تفجير برجى نيويورك؟

كذلك كان الأمر بالنسبة لجماعة الإخوان. هم أيضا كانوا فى عمق ذات البئر المريره. ونقرأ لأحد قادة جهازهم السرى «أن أعضاء الجهاز يمتلكون- دون إذن من أحد- الحق فى اغتيال من

يشاؤون من خصومهم السياسيين، فكلهم قارئ لسنه رسول الله فى إباحة اغتيال أعداء الله» تصوروا خصومهم السياسيين هم أعداء الله ويباح اغتيالهم. بل هو يقول «أن قتل أعداء الله غيله هو من شرائع الإسلام»(١٢)

ولعلنا هنا نكتشف لماذا ألححنا منذ البداية على ضرورة التأكيد على أن صحيح الإسلام مع العلم والعقل ومع التفسير التأويلى والتفسير وفق أسباب التنزيل والابتعاد عن التفسير النصى ومع التجديد بدلا من التقليد، والعقل بدلا من النقل، ومع التطلع للتقدم وليس الحلم بالماضي. فذلك كله يفسر لنا الفارق الواضح بين إسلام المسلمين وتأسلم المتأسلمين، ويوضح لنا لماذا كان ما كان فى ١١ سبتمبر.

* * *

ولكن، نحن لم نزل لم ننزل إلى عمق البئر المتأسلم. فلم يزل أمامنا أن نتأمل فى أفكار ومنطلقات فكرية استند إليها هؤلاء المتأسلمون. وهى المنطلقات التى ألححنا فى التحذير منها فى البداية. فلم يكن مصادفة أو تزيدا أن نحذر من اختراع الروايات والأحاديث لخدمة أهداف سياسية أو قبلية محددة..

«فالاغتيال» وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وجدوا له مبرراً،

وحكوا حوله حكايات وكأنها تجعل منه مقبولا أو حتى ضرورة. و كذلك «الإرهاب».

والغريب في الأمر أننا لم نتأمل في الفارق بين هاتين المفردتين. «إرهاب» و«اغتيال».

في القاموس الإرهاب من رهب أي خاف وبابه طَرِبَ. ويقال: رَهَّبه أي أخافه وأفزعه. أرهبه أي أخافه(١٣).

أما اغتال فأصلها غول. ومنها غال الشئ من باب قال. واغتاله أي أخذه من حيث لم يدر. وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول. اغتاله أي قتله غيلة. ويقال الغضب غول الحلم لأنه يغتال الحلم. وعند الأصمعي الغيل هو الشجر الكثيف، ويقال قتله غيله فهو يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله(١٤).

إنه ذات الفارق في كل اللغات تقريبا ففي الإنجليزية هناك فارق بين assassinate وبين terror.

وباختصار ودون دخول في تفاصيل لغوية.

حادث ١١ سبتمبر هو حادث إرهابي قصد به تخويف الاستكبار المسيحي العالمي وافزاعه. وهو تتويج درامي لأحداث الاغتيالات التي اتقن فعلها وتبريرها رجال أيمن الظواهري وتلاميذه من أعضاء «جماعة الجهاد» المصرية.

وسـواء كـان الأمـر إرهابا أو اغـتـيـالا فـقـد كـان من الضـرورى التفتيش فى كل الآبار المسممه، وفى كل ذخيرة التأسلم من روايات ملفقه وأحداث مصنوعة لتبرير وتزويق هذا الفعل الإجرامي. ولن ننساق فى هذا الأمر فهو مخيف، ومفزغ ونكتفى بروايه اعتقد إنها مجرد نموذج للملفقات العديدة التى ذخرت بها كتب التراث.

يحكى ابن أبى الحديد عن اغتيال سعد بن أبى عباده على زمن عمر بن الخطاب. فقد امتنع سعد عن مبايعة أبى بكر ثم عن مبايعة عمر. ثم «أسفر إلى الشام وهناك أغتيل ، وقيل أن الجن قد شكت قلبه لأنه كان يبول واقفا»، وكانت هذه الفعلة هى أحد المحاذير التى حذر منها العرب وتوعدوا فاعلها بأن تشك الجن قلبه.

ويمضى ابن أبى الحديد مبررا الاغتيال، بل ويعتبره أحد وسائل تصحيح الدين فيقول :

يقولون سعداً شكت الجن قلبه

ألا ربما صححت دينك بالغدر

وما ذنب سعد إنه بال واقفا

ولكن سعدا لم يبايع أبا بكر» (١٥)

.. والخطير فى كل هذه الرواية أنها منسوبة إلى عهد عمر بن الخطاب، والقول «إلا ربما صححت دينك بالغدر».

ويهذا يتخذ الثالوث المتأسلم من هذه الآبار القديمة المسممة سلماً يصعدون أو بالدقة يهبطون به نحو المزيد من التأسلم فى تبرير الإرهاب والاغتيال.

الهوامش

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : د. رفعت السعيد- العلمانية بين الإسلام والتأسلم- ط٣-(٢٠٠١)

(2) Albert Hourani- Arabic Thought in the Libral age. p.8.

(3) Oxford Dictionary- London. 1970.

(٤) د. مراد وهبه - معجم المصطلحات الفلسفية - القاهرة- ١٩٨٧.

(٥) محضر أقوال المتهم شكرى مصطفى أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا فى القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧(قضية اغتيال الشيخ الذهبي).

(٦) شكرى مصطفى - التوسمات(مخطوط)- ص٣.

(٧) المرجع السابق- ص٧.

(٨) المرجع السابق- ص٢٢.

(٩) المرجع السابق ص٢٥.

(١٠) المرجع السابق- ص٢٧.

(١١) المرجع السابق- ص٢٨.

(١٢) محمود الصباغ - حقيقة النظام الخاص- ص١٣٨، ص٤٢٩.

(١٣) الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازي- مختار الصحاح- القاهرة- ١٩٢٠، باب رهب.

(١٤) المرجع السابق- باب غول

(١٥) ابن أبى الحديد- شرح نهج البلاغة.

رب حـرب أهاجها قبيح الكلام

أحمد بن حنبل

لقد أثبت التاريخ أن الأنبيـــاء

غير المسلحين فاشلون

ميكيافللي

وسوف نبدأ في حديثنا عن ثالوث أحداث ١١ سبتمبر بأيمن الظواهرى فهو الاستاذ والمنَّظر والمنظم.

وأيمن الظواهرى ليس سوى واحد ممن خرجوا من عباءة جماعة الاخوان "كان ذهابى الى هذه البلاد البعيدة (أفغانستان) بترتيب قدرى، فقد بدأت صلتى بأفغانستان صيف عام ١٩٨٠ حينما كنت أعمل بصفة مؤقته مكان أحد زملائى فى مستوصف السيدة زينب التابع للجمعية الاسلامية وهى احدى أنشطة الاخوان المسلمين، وفى احدى الليالى كلمنى مدير المستوصف- وهو من الاخوان المسلمين- عن رأيى فى السفر لباكستان للعمل فى المساعدة الجراحية للمهاجرين الأفغان فوافقت على الفور اذ وجدت فى هذا العرض فرصة ذهبية للتعرف على ميدان من ميادين الجهاد التى يمكن أن تكون رافدا وقاعدة للجهاد فى مصر والعالم العربى، قلب العالم الاسلامى حيث تدور معركة الإسلام الأساسية". و"لاقامة قاعدة أمنة لاستمرار العمل الجهادى فى مصر خاصة فى عهد أنور السادات حينما ظهرت ملامح الحملة الصليبية الجديدة واضحة"(١) لكن أيمن الظواهرى لم يكن اخوانيا فى أيامه الأخيرة، فبرغم ولاءه الشديد

لفكر سيد قطب، وحديثه المنبهر عن كمال السنانيرى أحد قادة الجماعة الا أنه كتب الكثير منتقدا للسياسات "المتهادنة" و"المعتدلة" لهذه الجماعة.

وفى كتابه الأخير "فرسان تحت راية النبى" وقد ضاهى بهذا الاسم ما اتخذه بعض الصليبيين فى حربهم من أجل القدس من اسم لهم "فرسان القلب المقدس" يقول "ان تركيبة الاخوان المسلمين عجيبة، فالقيادة الظاهرة كان يمثلها آنذاك عمر التلمسانى أمام الناس والنظام،أما القيادة الحقيقية فقد كانت في يد مجموعة النظام الخاص من أمثال مصطفى مشهور والدكتور أحمد الملط والاستاذ كمال السنانيرى".

وهو يقدم من خلال نقده لجماعة الاخوان واقعة بالغة الخطورة - ان كانت صحيحة - فيقول "والتقى يحيى هاشم (أحد كوادر جماعة الجهاد) بعدد من قيادات الاخوان.. وجاء الينا يحمل تصورهم فى العمل. كان تصورهم أن تكون لهم القيادة من بعيد، ولكن لايتحملون مسئولية أى مشكلات تحدث. وقلت ليحيى: أن هذه هى عين الانتهازية، لهم حسنة القيادة وعلينا سيئاتها"(٢) هذه الواقعة - ان صحت - تعنى أن جماعة الاخوان ليست ضد الارهاب والتطرف، وانما فقط تريد أن تحركه من بعيد كي لا ينالها أذى.

وينصب أكثر انتقاد الظواهرى حول مسلك جماعة الاخوان على توقفهم عن الممارسة المباشرة للارهاب، وعلى قبولهم للديمقراطية، التى هى فى نظرة كفر بواح. "فمن يقول أنا مسلم ديمقراطى أو مسلم ينادى بالديمقراطية كمن يقول عن نفسه أنه مسلم يهودى أو مسلم نصرانى أو كمن يقول أشهد أن لا اله الا الله وأن مسيلمة رسول الله"(٣)

وهو يستهل كتابة "الحصاد المر" بقصيدة كتبتها السيدة أمينة قطب شقيقة الاستاذ سيد قطب تحت عنوان "خواطر الى سيد فى ذكرى استشهاده"(٤) تنعى فيها على جماعة الاخوان ضعفهم وتهادنهم وتخليهم عن الجهاد.

أخى أنه لحديث يطول
وفيه الاسى وعميق الشجون

رأيت تبدل خط الحداة
بمانالهم من عناء السنين

فمالوا الى هدنة المستكين
ومدوا الجسور مع المجرمين

وتتساءل:

ترى هل يعودون أم انهم

يظنون ذلك خط النجاح

وفى وهمهم أن مد الجسور

سيمضى بآمالهم للفلاح

وينسون أن طريق الكفاح

به الصدق والفوز رغم الجراح

ثم نمضى مع الوعــاء الفكرى الذى أنبت منه الظواهرى فكرة الانتقام من الاستكبار الصليبى العالمى. والتى تبلورت فى تلك الجبهة التى هو عمادها النظرى "الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين" (١٩٩٨).

ويصف الظواهرى نفســـه بأنه "رجل يزعم أنه ينتـــمى الى المجاهدين بصلة، ويقترب منهم بوشيجة ويرجو أن يقضى ما بقى من عمره فى خدمة قضية الاسلام، فى معركته الضروس ضد طواغيت الحملة الصليبية الجديدة" ولأنه كان يكتب كتابه "فرسان تحت راية النبى" عشية الاعداد لاحداث ١١ سبتمبر فقد ضمنه انذاراً صارماً "هذا الكتاب كتب نذيراً لقوى الشر المتربصة بهذه الأمة، ونقول لكم أن الأمة تقترب من هزيمتكم يوما بعد يوم، وتوشك على استيفاء قصاصها منكم، خطوة بعد خطوة، وان معركتكم معها محكوم عليكم بالهزيمة فيها، وان كانت محاولاتكم لا تعدو أن تكون محاولات

لتأخير نصر الأمة لا لمنع هذا النصر" ويقول الظواهرى أن المرحلة الحالية "هى مرحلة عالمية المعركة، بعد أن توحدت قوى الكفر ضد فئات المجاهدين، أن المعركة اليوم لا يمكن أن تخاض اقليمية دون النظر الى العداء العالمى".

ويتحدث عن رجاله قائلا "إنهم يتمتعون بميزة لا يطمع أعداؤهم فى أن يتمتعوا بها، فهم أكثر الناس شهودا لقدرة ربهم الذى أعانهم بقوته حتى تحولوا من شتات لا يملك الا يسيرا، ولا يعلم الا قليلا الى قوة مرهوبة تهدد استقرار النظام العالمى الجديد"(٥)

المعركة اذن معركة عالمية. وهنا يتخلص الظواهرى من مشكلة فقهية كثيراً ما استغرق فيها هو واخوانه حول موضوع وجوب قتال العدو القريب، قبل البعيد، ويفسر البعض ذلك بأنه نتيجة لعمليات إرهابية تكرر فشلها أو اجهضت على يد الأمن المصرى (محاولات اغتيال صفوت الشريف، اللواء حسن الألفى، اللواء عبد الحليم موسى، د.عاطف صدقى، ومحاولتين لاغتيال الرئيس مبارك، ومحاولة نسف خان الخليلى.. الخ وقد فشلت هذه المحاولات جميعاً وقبض على حوالى ٨٠٠ من أعضاء ما أسمى تنظيم طلائع الفتح) بما وضع جماعة الجهاد فى مأزق حقيقى إذ أوشكت حتى أن تفقد مبرر وجودها فكان الاتجاه عالمياً مخرجاً مريحاً.

كذلك فإن تشتت من أسموا "بالأفغان العرب" كان حافزاً لفكرة العالمية هذه فهو يقول.. "هؤلاء الشباب أحيوا فريضة طالما حرمت منها الأمة بالقتال فى أفغانستان وكشمير والبوسنة والشيشان فتكون لدى الشباب المسلم وعى واسع وادراك أعمق بالمؤامرة المحاكة، وفهم شرعى تجاه أعداء الاسلام والخارجين وعملائهم"(٦)

وهو يوضح بعداً جديداً لنشاطه كأمير لجماعة الجهاد فى أفغانستان ضمن الجبهة العالمية قائلا "إن الحركة الجهادية فى حاجة إلى ساحة جهادية تكون لها بمثابة المحضن الذى تنمو فيه البذرة النابته وتكتسب فيها خبراتها العلمية والقتالية والسياسية والتنظيمية"(٧)

ثم هو يقدم مبرراً مثيراً للاهتمام اذ هو يسقط من حسابه ثورات التحرر الوطنى ومعاركها لأنه يعتبر أنها تطمس المعالم الاسلامية للتحرك "خاض الشباب المسلم فى أفغانستان معركة تحرير الأرض المسلمة تحت شعارات اسلامية خالصة، وهو أمر فى غاية الخطورة، اذ أن كثيراً من معارك التحرير التى جرت على أرض عالمنا الاسلامى اختلطت فيها شعارات القومية الوطنية بالاسلام بل وأحياناً بشعارات اليسار والشيوعية، مما أحدث لدى الشباب المسلم انفصاماً بين عقيدته الجهادية الاسلامية التى يجب أن تقوم على

أساس اخلاص الدين لله، وبين تطبيقها الواقعى، وقضية فلسطين خير مثال على ذلك حيث اختلطت فيها الشعارات والعقائد تحت شعار التحالف مع الشيطان من أجل تحرير فلسطين، فتحالفوا مع الشيطان وخسروا فلسطين" ثم يعود فيكرر "ان هذه المعارك التى تعلوها رايات غير اسلامية، أو رايات مختلطة قد أضاعت الحدود الفاصلة بين الأولياء والأعداء فأصبح العدو مشكوكا فيه أهو العدو الخارجي الذى يحتل أرض المسلمين أم العدو الداخلى الذى يمنع الحكم بالاسلام ويبطش بالمسلمين، وينشر الفجور والانحلال تحت شعارات التقدم والحرية والقومية والتحرير سائقاً الأوطان الى هاوية الدمار الداخلى والاستسلام للعدو الخارجي، كما هو حال معظم بلادنا فى ظل النظام العالمى الجديد؟"

وهو يفسر لنا كيف طمح تفكيرهم الى تدمير أمريكا فيقول "كانت أهمية معارك الجهاد فى أفغانستان أنها حطمت وهم القوة العظمى فى أفغانستان فى أذهان الشباب المسلم، فالاتحاد السوفيتى وهو القوة العظمى صاحبة أكبر قوة برية فى العالم تحطم وفرّت فلولة هاربة، فكان ذلك دورة تدريبية فى غاية الخطورة لاعداد الشباب المسلم المجاهد لخوض معركته المنتظرة مع القوة العظمى التى تفردت بزعامة العالم الآن.. أمريكا"(٨) وهو يفسر غضب أمريكا

عليهم بعد وفاقها معهم فى أفغانستان "لقد أرادتها أمريكا حرباً بالوكالة عنها ضد الاتحاد السوفيتى، فحولها المجاهدون العرب الى دعوة لاحياء فريضة الجهاد فى سبيل الله"(٩)

ويؤكد الظواهرى ضرورة عالمية المعركة الإسلامية ، من زاوية أخرى ، وهي أن تحالفاً عالمياً ومطاردة دولية تعقبت "المجاهدين" فالعدو عالمي التكوين، والمعركة ضده يجب أن تكون عالمية. وعلى رأس هذا الحلف العالمي " امريكا" . " اقتنعت أمريكا أن النظام المصري لايستطيع أن يصمد وحده أمام هذه الحملة الأصولية. واقتنعت أن هذه الروح الجهادية ستقلب الأمور في المنطقة رأساً على عقب، وتطرد أمريكا منها، وحينئذ سيقع الزلزال الذي يرتجف الغرب منه ، ألا وهو قيام دولة الخلافة الإسلامية فى مصر، فتصبح مصر قادرة على قيادة العالم الاسلامي في جهاده ضد الغرب ، ويلتف حولها مسلمو العالم كله، وعندئذ سيدور التاريخ – إن شاء الله – في الاتجاه المعاكس ضد امبراطورية أمريكا وحكومة اليهود العالمية"(١٠)

وامريكا هي العدو الأول. فبعد حرب الخليج الثانية " اندفعت الترسانة الأمريكية بأساطيلها وقواتها الضاربة إلى المنطقة لتشرف على مصالحها بنفسها ، فانتقلت من دور محرك الأحداث من وراء الستار الى الخصم المباشر للمسلمين " كما أن "أمريكا استهانت

بالشـريعـة الإسـلامـيـة ، وأهانـت الإسـلامـيين عندمـا دعتـهـا إمـارة أفغانسـتـان على لسان الملا محمد عمر الى تقديم أدلة تورط بن لادن في الاعمال الإرهابية (المدمرة كول ونسف السفارتين الأمريكيتين في أفريقيا) إلى المحكمة الشرعية، كما رفضت التفاوض مع الملا عمر وهذه اهانة واضحة" وقال وكأنه يعرف أن ثمة غزو أمريكي قادم "أن أمريكا تعرف مقدماً نتيجة غزو أفغانستان عبر دروس التاريخ التي مضت" وأكد انه برغم كل شيء فان " امارتي الشيشان وأفغانستان ستظلان البؤرتين الاسلاميتين ضد أمريكا " (١١)

ويقول وكأنه يتوقع ماحدث "ووصول المجاهدين من الشيشان والقوقاز الى سواحل بحر قزوين الغنيَ بالبترول يجعل بينهم وبين أفغانستان جمهورية تركمانستان المحايدة فقط مما يشكل حزاماً اسلامياً مجاهداً متصلاً شرقاً مع باكستان التي تموج بحركات الشباب المجاهد في كشميروجنوباً وغرباً مع ايران وتركيا المتعاطفتين مع مسلمي وسط آسيا" ثم "من أجل ذلك اختارت أمريكا ان تبدأ بسحق الشيشان بالتمويل الغربي للجيش الروسي ثم تتوجه جنوباً الى أفغانستان بدعوى القضاء على الارهاب وتجارة المخدرات وتحرير المرأة وبذلك تكون أمريكا قد قضت على بؤرتي المقاومة الباقيتين ضدها في العالم الاسلامي"(١٢)

.. والغريب في الأمر أنه كتب هذه العبارات قبيل حادث ١١سبتمبر بأسبوعين أو ثلاثة الى درجة أن البعض قد اعتبر كتاب "فرسان تحت راية النبي" بمثابة وصية الظواهري الأخيرة . والغريب انه اذ يحلل المخطط الذي يستهدف تدمير الشيشان وأفغانستان فانه كان يخطط بحماس وتدقيق كي يستفزه ويستدعيه ، ويقدم له المبرر والحجة لتحقيق أهدافه . لكننا سنرى فيما بعد أن لهؤلاء المتأسلمين منطق آخر مختلف تماماً عن منطقنا، منطق يستند الى الاطمئنان الجازم بأنهم جماعة المسلمين وأكثر المؤمنين ايماناً، ثم... و"كان حق علينا نصر المؤمنين" ناسين أنه وحتى في زمن الرسول كانت الهزيمة في غزوة أحد عندما لم يأخذ المسلمون بالأسباب الصحيحة للنصر.

والظواهري لايتوقف كثيراً أمام ضحايا عملياته " الجهادية" ويقول ان جماعته «قد حذرت أفراد الشعب المصري كي يبتعدوا عن مقار أركان النظام ومساكنهم وطرق تحركهم، وأركان النظام لايتميزون في مساكن ومكاتب ومواكب بعيدة عن الجمهور، ولكنهم يختلطون بهم ويحتمون بزخامهم فليس لنا بد من ضربهم مع انذارنا لعامة الناس».

ثم يقول «ولقد أسفت لمقتل الطفلة شيماء (التى قتلت خلال محاولة اغتيال د.عاطف صدقى) ولكن لا حيلة لنا فالجهاد يجب ألا يتوقف"

ثم يقول: "وفيما يتعلق بهذا الأمر "فقد أخذنا بقول الامام الشافعى بأداء الدية لأولياء القتيل" لكنه يعود فيقول "واذا أردنا أن نضع قضية شيماء فى الميزان الصحيح فعلينا أن نضع فى الكفة الأخرى للميزان بناتنا ونساءنا اللاتى تيتمن وترملن بلا ذنب.. فمن الذى بكى على بناتنا واهتم بهن؟"(١٢)

لكنه لم يقل ما هو ذنب شيماء؟. ولعله من المفيد أن نشير الى أن العبارة السابقة وردت فى كتاب أصدره الظواهرى عقب مقتل شيماء وأسماه "شفاء صدور المؤمنين". ولعله اشتق عنوان الكتاب من الآية الكريمة "وقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم، ويشف بكم صدور قوم مؤمنين".

وعلى أية حال فإن البداية الحقيقية لهذه الرحلة نحو عالمية الجهاد، وعالمية العدو وعلى رأسه أمريكا قد بدأت فى فبراير ١٩٩٨ ببيان وقعه أهم قادة الحركات الاسلامية المسلحة فى العالم يعلنون فيه تأسيس "الجبهة العالمية لقتال اليهود والأمريكان" وأكد البيان على أن، "حكم قتل الأمريكان وحلفائهم مدنيين وعسكريين فرض عين على كل مسلم أمكنه ذلك فى كل بلد تيسر فيه، حتى يتحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم وحتى تخرج جيوشهم من كل أرض الاسلام مشلولة اليد، كسيرة الجناح عاجزة عن تهديد

أى مسلم" والموقعون هم أسامة بن لادن. أيمن الظواهرى - رفاعى طه - منير حمزة (سكرتير جمعية علماء باكستان) - وفضل الرحمن "أمير حركة الجهاد فى بنجلاديش"(١٤)

* * *

ونأتى إلى ثانى رجال الثالوث أسامة بن لادن. الذى قال البعض أنه الزعيم والمؤسس والممول والقائد، بينما قال البعض الآخر أنه كان مجرد الرجل الثانى للزعيم الحقيقى أيمن الظواهرى.

وعلى أية حال فما كان كل هذا الأمر ليكون دون اسم، وجهد، وأموال، وخبرة، ونفوذ أسامة بن لادن.

وأسامة بن لادن يأتى من أسرة متدينة، بل هو يوحى بأنها شديدة التدين "الحمد لله، اسمى أسامة بن محمد بن عوض بن لادن من الله على أن ولدت من أبوين مسلمين. أبى فتح الله عليه بأن شرف بما لم يشرف به أحد من البنائين وهو بناء المسجد الحرام الذى فيه الكعبة المشرفة، ثم قام ببناء المسجد النبوى فى المدينة المنورة ثم قام بترميم قبة الصخرة.. وكان من فضل الله عليه أنه يصلى أحياناً فى المساجد الثلاثة فى يوم واحد"(١٥)

لكنه رغم حماسه واصراره وشهرته التى فاقت شهرة كل أقرانه يبدو في تعبيره عن أفكاره ومواقفه مجرد متحمس بغير عمق فقهى،

أو حتى شبه فقهى. هو يتحدث بحماس ويصبغ ألفاظه أو يحاول بمسحة اسلامية، لكنه يبدو سطحياً جداً اذا ما قورن بأيمن الظواهرى. ربما هو فارق شخصى، وربما هو طابع بعض المثقفين مهما اختلفت توجهاتهم فانهم يتعمقون فيما يقولون، أو يحاولون، بينما البعض يكتفون بقول مبسط أو مباشر. وربما لهذا السبب يكاد الجميع أن يجمعوا على أن المنظر والمفكر والرقم الأول فى تنظيم القاعدة هو الظواهرى، دون أن يقلل ذلك من قيمة أو من شهرة أو قدرات ابن لادن، أو دوره القيادى.

ونواصل مطالعتنا لحواره المسجل بصوته "الذى حصل على بلاد المسلمين من اعتداء خاصة على المقدسات.. المسجد الأقصى حيث قبلة النبى (صلعم) الأولى، ثم استمر العدوان من التحالف اليهودى الصليبى الذى تتزعمه أمريكا واسرائيل، حتى أخذوا بلاد الحرمين ولا حول ولاقوة الا بالله، فنحن نسعى لتحريض الأمة كى تقوم بتحرير أرضها والجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى لتحكم الشرع وتكون كلمة الله هي العليا".

ويؤكد عدد من الباحثين أن أسامة بن لادن كان على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية خلال فترة الحرب ضد السوفييت، ويركزون على واقعة محددة باعتبارها البداية لهذه العلاقة "ارتفعت معدلات

الاستشهاديين المجاهدين بسبب قذائف المدفعية الروسية D.R.A المضادة للأفراد، ولمواجهة ذلك قام أسامة بن لادن وبمساعدة من المخابرات الأمريكية بعد وساطة من المخابرات الباكستانية بجلب عدد كبير من المعدات الثقيلة من الشركات المملوكة لأسرته لحفر خنادق وأنفاق احتمى بها المجاهدون"(١٦)

وحول عمليات القصف التى قامت بها أمريكا وبريطانيا ضد العراق (١٩٩٨) يقول "ينبغي أن نستشعر أن أى هجوم اليوم على أى دولة فى العالم الاسلامى انما المهاجم الحقيقى هو اسرائيل، ولكن خشية أن يستيقظ الناس وتبدأ حركات شعبية ضخمة تسقط الأنظمة العميلة التى تواطأت من أجل كراسيها عن نصرة الاسلام والمسلمين.. استطاع اليهود أن يوجهوا النصارى من أمريكا وبريطانيا من أجل القيام بالواجب فى ضرب العراق، وتدعى أمريكا أنها تحاسبه وتحاكمه ولكن الصواب أن السلطة الاسرائيلية ، السلطة اليهودية التى تنفذت داخل البيت الأبيض هى التي تفعل. أنهم ساقوا النصارى لقصقصة أجنحة العالم الاسلامى" وبهذا وبمثله من الأقوال تتضح بساطة سياسية فادحة.

وهو يرفض اللجوء الى الأمم المتحدة "فلا يذهب الى الأمم المتحدة عاقل ولو كان كافراً، أما المسلمون فشرعاً لا يجوز أن يتحاكموا الى

هذه الأنظمة الكفرية الوضعية"

أمـا عن الوضع فى البلاد العربية "دول المنطقة دول ليست ذات سيادة، فأعداؤنا يسرحون ويمرحون فى بقاعنا وفى أراضينا وفى أجوائنا.. الأنظمة الموجودة انما هى متآمرة متواطئة" فماذا يجب على المسلم ازاء ذلك؟ يجيب بن لادن ببساطة شديدة "ينبغى على المسلمين وبخاصة أهل الحل والعقد وأهل الرأى من العلماء الصادقين والتجار المخلصين وشيوخ القبائل أن يهاجروا فى سبيل الله ويجدوا لهم مكانا يرفعوا (صحتها يرفعون) فيه راية الجهاد".

وهو يؤكد احتمال أن تشن أمريكا حرباً على أفغانستان " من الطبيعى جداً أن نتوقع ضربات أخرى على كل من يرفع راية الاسلام، وطالبان بفضل الله سبحانه تعالى هداهم الله الى السداد والصواب. ونتوقع أن يضرب الامريكان طالبان" ولعل من حقنا أن نسأل أن كان ضرب طالبان متوقعاً، فلماذا استجلب هو عليها هذا الضرب؟

وعن قتل المدنيين غير المحاربين يقدم أسامة بن لادن تفسيراً غريباً "الرجل مقاتل سواء حمل السلاح أو أعان عى قتالنا بدفعة الضرائب وجمعه المعلومات فهو مقاتل، أما ما ينشر من أن أسامة يهدد بقتل المدنيين فهم يقتلون الأطفال فى فلسطين وليس المدنيين

فقط. وبالنسبة لنا فالمستهدف حسب ما ييسر الله للمسلمين كل رجل أمريكي هو عدو سواء كان من الذين يقاتلوننا قتالا مباشراً أو من الذين يدفعون الضرائب، ولعلكم سمعتم هذه الأيام أن نسبة الذين يؤيدون كلينتون فى ضرب العراق تقريباً ثلاثة أرباع الشعب الأمريكي، فشعب ترتفع أسهم رئيسه عندما يقتل الأبرياء، شعب عندما يقترف رئيسه الفواحش العظيمة والكبائر تزيد شعبيته، شعب منحط"

وهو يكاد أن يشي بحلفائه في باكستان "تصلنا من باكستان معلومات، من أحبائنا من أنصار الجهاد في سبيل الله ضد الأمريكان، الشعب والناس فى باكستان أعطوا معياراً واضحاً لمدى البغض والكره للغطرسة على العالم الاسلامى" وقد جاءت هذه العبارة رداً على سؤال: هل تلقيت تحذيرات من الحكومة الباكستانية قبل القصف الأمريكي على منطقة خوست فى أغسطس (١٩٩٨).؟"

وعندما سئل هل يسعى للحصول على أسلحة كيماوية وجرثومية ونووية أجاب "هذه ليست تهمة، وواجب المسلمين أن يمتلكون هذه الأسلحة" ويسأله الصحفى عن رأيه فى توجه بعض الحركات الاسلامية للتعاطى مع الانتخابات التشريعية ودخول البرلمانات، أو ما يسمى باللعبة الديمقراطية، فتأتى اجابته أكثر لينا من اجابات

الظواهرى اذ يقول "نعتقد أن الجهاد فرض عين اليوم على الأمة، ولكن ينبغى التفريق بين الحكم والقدرة على القيام به، ففى أى بلد توفرت المقومات اللازمة من العدد والعدة وما يلزم لأركان الجهاد أن تقوم، فعند ذلك يجب على المسلمين فى ذلك المكان أن يشرعوا بالجهاد ضد الكفر الأكبر المستبين. ولكن اذا ظهر لهم أن المقومات لم تكتمل فهم مأمورون فى هذه الحالة بالعفو والصفح" لكنه وبرغم هذا الموقف الأكثر ليونة يؤكد أن مقومات الجهاد جاهزة "أن الذين من الله عليهم بالجهاد كما حصل فى أفغانستان أو فى البوسنة أو الشيشان، ونحن منّ الله علينا بذلك، فنحن على يقين أن الأمة اليوم تستطيع باذن الله سبحانه وتعالى أن تجاهد ضد أعداء الاسلام وبخاصة ضد العدو الأكبر الخارجى، أى التحالف الصليبى اليهودى".

وهو يرى أن، العمل الاسلامى خارج امارة أفغانستان قليل القيمة "وننصح اخواننا المسلمين فى الخارج أن كثيراً من الجهد أن كان بعيداً عن وجود الدولة الإسلامية فلن يأتى بالثمرة المرجوة الكبيرة، فهذا نبينا محمد (صلعم) مكث ثلاثة عشر سنة يدعو فى مكة المكرمة، وكانت المحصلة بضع مئات من المهاجرين، فلما وجدت دولة المدينة على صغرها.. قام الخير فنحن ندعو المسلمين أن

ينصروا هذه الدولة التى تمثل راية الإسلام، وأى اعتداء من أمريكا على أفغانستان يأتى لأنها رافعة راية الإسلام الصحيح المجاهد. وعلاقاتنا بفضل الله تعالى مع الطلبة (طالبان) قوية جداً ووطيدة، هى علاقة عقدية قائمة على معتقد. ونحن هنا لانعمل بصفة مستقلة، بل نحن فى دولة لها أمير مؤمنين، ملزمون شرعاً بطاعته" وهو يقول فى صراحة "ولظروف كثيرة فى أفغانستان هناك رأى للطلبة (طالبان) الا نتحرك من داخل الأراضى الأفغانية ضد أى دولة أخرى. وهذا كان قرار أمير المؤمنين كما هو معلوم".

ونتوقف قليلا لنسأل: هل كان ملا عمر يستشعر خطر هجوم علي إمارته، فأمر بعدم القيام بأى تحرك من داخل الأراضى الأفغانية؟ وهل كانت انطلاقات منفذى حادث ١١ سبتمبر من ألمانيا وأسبانيا محاولة للتمويه على أمريكا أو حتى على طالبان؟.

ويشن ابن لادن فى ختام حديثه حملة على اليهود والنصارى قائلا " إن بغض اليهود والنصارى هو جزء من ديننا" ويقول " ان العالم الصليبي قد أجمع على أكل العالم الاسلامى".. وينسى ابن لادن فى غمرة حماسه الآية الكريمة "كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله" وينسى أيضاً "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين

ورهبانا وأنهم لا يستكبرون" (المائدة ٨٢).

وأيضاً "لاتجادلوا أهل الكتاب الابالتي هى أحسن الا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم وآلهنا وآلهكم واحد، ونحن له مسلمون" (العنكبوت٤٦).

.وتقع أحداث ١١ سبتمبر، وتقع طالبان فى المأزق، مجلس العلماء يطلب اليه أن يبادر هو بمغادرة الامارة لكنه لا يفعل بل يورط الجميع معه. وفي بيانه الأخير الذى اذاعته قناة الجزيرة يقول ان "أحداث ٢٢ جمادى الثانية الموافق الحادى عشر من سبتمبر ما هى الا رد فعل للظلم المتواصل الذى يمارس على أبنائنا في فلسطين وفي العراق وفي الصومال وفي جنوب السودان، كما في كشمير وآسام. فالأمر يخص الأمة بأسرها فينبغي علي الناس أن يستيقظوا من رقادهم، وأن يهبوا لايجاد حل لهذه الكارثة التي تهدد البشر جميعاً" ثم يقول "إن هذا الردالمبارك بفضل من الله سبحانه وتعالى وهذه الضربات المباركة لها دلالات عظيمة، فقد أوضحت بجلاء ان هذه القوة المتغطرسة "هبل" العصر، أمريكا تقوم على قوة اقتصادية عظيمة، ولكنها هشة ما أسرع أن تهاوت بفضل الله سبحانه وتعالى".

وكالمعتاد يبقى بن لادن ومن ينهجون نهجه متأكدين من النصر

حتى يغرقهم الطوفان. فثمة سمة مشتركة بينهم جميعا، هي تعجلهم اليقين بالقدرة على النصر.

وفيما كانت أفغانسان تقصف قصفاً حاداً عنيفاً كثيفاً قال بن لادن في بيانه الأخير" ان القوة العسكرية الأمريكية وان أظهرت أمريكا استعراضها لهذه القوة في أفغانستان في الفترة الأخيرة وصبت جام غضبها على هؤلاء المستضعفين، فقد أخذنا بفضل الله سبحانه وتعالى دروساً عظيمة ومهمة في كيفية مقاومة هذه القوة المتكبرة" ثم يقدم تصوراً تكتيكياً مثيراً للدهشة، لعله يفتقدأبسط قواعد التفكير العسكري "لو ان خط الجبهة مع العدو يبلغ في طوله١٠٠كيلومترفينبغي أن يكون هذا الخط عريضاً بمعنى أن لانكتفي بخط دفاع بعمق أو بعرض ١٠٠ متر أو٢٠٠ متر بل ينبغي أن يعرّض هذا الخط إلى عدة كيلو مترات، وتحفر الخنادق على طول الجبهة وعلى عرضها، فكثافة القصف الأمريكي تستنزف قبل أن تصل إلى نهاية تدمير هذه الخطوط ، وتكون هناك قوات خفيفة وسريعة الحركة من خط إلى خط، ومن حزمة دفاعية إلى حزمة دفاعية، وبهذه الطريقة تمر السنوات ولاتستطيع أمريكا بإذن الله سبحانه وتعالى أن تكسر خطوط المجاهدين(١٧)

وفي ٢٥- ٩- ٢٠٠١ وجه أسامة ابن لادن بياناً يحث فيه الشعب

الباكستاني على الجهاد ويقول"وأبشركم أيها الأخوة الأحبة أننا ثابتون على طريق الجهاد في سبيل الله مع الشعب الأفغاني المؤمن البطل، وتحت قيادة أميرنا المجاهد المعتز بدينه أمير المؤمنين الملا محمد عمر، نسأل الله أن ينصره على قوى الكفر والطغيان وأن يحطم الصليبية اليهودية الجديدة على أرض باكستان وأفغانستان"(١٨)

* * *

ونأتى إلى الضلع الأخير من المثلث "طالبان" أى الطلبة باللغة الباشتونية. وهؤلاء الطلبة هم ثمرة المدارس الدينية الباكستانية التى وجدت امتداداً لها فى أفغانستان.

ويقول تقرير رسمى باكستانى "أن عدد المدارس الدينية فى باكستان ٢٧٠٦ مدرسة يدرس فيها ٥٤٠ ألف طالب وطالبة ويضم اقليم البنجاب وحده غالبية هذه المدارس ١٦٨٦ مدرسة, أما الحدود الباكستانية الأفغانية فتضم ٦٨٦ مدرسة، وهذه المدارس تدرس فقط العلوم الشرعية واللغة العربية، ولا تهتم بالعلوم العصرية"(١٩) ومن هذه المدارس تخرج أغلب قادة طالبان مثل مولوى عبد الكبير رئيس حكومة طالبان والملا محمد حسن رحمانى والى قندهار، ومولوى سعيد الرحمن حقانى ومولوى شهاب الدين دلاور ومولوى حفيظ الله

وثلاثتهم هم أكبر المسئولين فى وزارة الخارجية، والأهم من هذا أن الملا محمد عمر زعيم طالبان، والملا محمد ربانى رئيس مجلس الشورى تخرجا هم أيضاً من هذه المدارس"(٢٠)

وابتداءً لابد لنا أن نفرق بين ملا ومولوى. فالمولوى هو طالب الدين الذى أتم تعليمه وتخرج عالماً فى الشريعة، أما الملا فهو_طالب الدين الذى لم يتم تعليمه بعد. فالملا محمد عمر أو كما أسمى نفسه رسميا "المجاهد الأكبر خادم الإسلام أمير المؤمنين ملا محمد عمر المجاهد" مجرد طالب لم يتم تعليمه.

.. ونأتى إلى قصة قيام طالبان فبعد سقوط حكومة نجيب الله وماتلاها من اقتتال فرق "المجاهدين مع بعضهم البعض وقعت مذابح رهيبة استمرت من ابريل ١٩٩٢ وحتى منتصف ١٩٩٤. عقد ملا محمد عمر وكان يعمل مديراً لمدرسة صغيرة فى اقليم مايوان أحد مناطق اقليم قندهار اجتماعاً ضم عدداً محدوداً من الطلبة (الذين تعلم أغلبهم فى المدارس الدينية فى باكستان) فى قرية "كشك نخود" وأعلن قيام حركة تستهدف الاستيلاء على السلطة لايقاف نزيف الدم واعلان قيام الإمارة الإسلامية، وأحضروا قطعة قماش بيضاء وكتبوا عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورفعوها على مبنى فى القرية معلنين قيام حركتهم.

(لكن ذلك لا يعني أن هذا هو العلم الرسمى لإمارة طالبان، فالإمارة ومنذ قيامها وحتى نهايتها كانت لاتعرف أو تعترف بعلم واحد، ربما لأسباب شرعية، فالرسول لم يكن له علم واحد، وانما عدة شارات. وهكذا فقد استخدمت طالبان العلم الذى أشرنا اليه، أو علم ذا رقعة بيضاء مكتوب عليها "الله أكبر"، وقد تكون الكتابة بالأسود أو الأخضر، وقد تستخدم رقعة بيضاء بلا كتابة). وقد جمع ملا عمر حوله خمسون طالباً هم كل من أتيح له أن يقنعهم بفكرته.

وقد منح ملا عمر نفسه فرصة تأسيس حركته عبر حصوله على فتوى شرعية من علماء المنطقة، وسرعان ما انضم اليه أحد أمراء الحرب فى ذات المكان واسمه "حاجى بشر". وكان الطلبة يسألون الملا عمر "كيف نقاتل وليس لنا قدرة كافية، فكان يرد عليهم بقوله "فلنتوكل على الله والتوكل على الله قسمان: توكل مع وجود الأسباب وتوكل دون الأسباب، وكان رأيه مع النوع الأول. وكان الملا عمر معروفاً بشجاعته وسداد تصويبه على الدبابات، وكان من جناح أكبر القادة الميدانيين للحزب الاسلامى (جناح يونس خالص). وبعد ذلك تشكل جيش طالبان من ٣١٣ مقاتلاً"(٢١)

ونأتى إلى أفكار ومواقف وتركيبة دولة طالبان. وسوف نعتمد هنا على كتاب لمؤلف مصرى هو الاستاذ عبد الحليم غزالى الذى كان

أحد الصحفيين القلائل الذين سمح لهم بزيارة "الإمارة"و واحداً من القلائل جداً الذين نالوا "بشارة" مقابلة أمير المؤمنين. (يعتقد الطالبان أن من يلتقى الملا عمر لن يدخل النار مهما فعل).

والكتاب عنوانه "طالبان العمائم والمدافع والأفيون – امراء الجهاد المضاد فى أفغانستان" ولسنا بقادرين علي تلخيص الكتاب، فقط سنستعرض بعض ملامح الامارة عبر لقطات سريعة ومتعجلة.

– متوسط عمر كبار المسئولين فى الإمارة ما بين ٢٠، ٤٠ عاماً. الملا عمر نفسه ولد عام ١٩٦٠، وأمير المال ملا عناية الله عمره ٢٢ عاما وهو لم يدرس أية علوم عصرية.

– وكبار المسئولين لايمكن تمييزهم الا من السيارات التى يركبونها والجدية والصرامة التى تغلف وجوههم، أما الجميع فهم بذات الملابس عسكريين ومدنيين ورجال شرطة.

– عارف الله العارف نائب وزير الاقتصاد عمره ٣٠ عاماً لم يدرس الاقتصاد وليس لديه أية إحصاءات أو أرقام، وعندما سئل عن رأيه فى "العولمة" قال إنها أول مرة يسمع فيها هذه الكلمة.

– مدير دار الطباعة الرئيسية فى الامارة الملا اختر محمد ٢٥ عاماً لم يكن يعرف شيئاً عن الطباعة عندما اختاروه لهذا المنصب.

– ملا محبوب الله رئيس فرع البنك الوطنى فى قندهار لم يدرس

الاقتصاد ولا يعرف شيئاً عنه، ويقول ببساطة "ذهبت إلى كابول وتعلمت كيف تحفظ الأموال وكيف أدير الأمور، ويقول إنه لا يعرف معنى كلمة تضخم.

- مولوى رحمه الله مفتي قندهار عمره ٣٠ عاماً وهو عضو لجنة الفتوى العليا"(٢٢) وهكذا.

وماذا عن المنطلقات الشرعية؟

- "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وهذا للأمراء، فان لم يستطع فبلسانه وهذا للعلماء، فان لم يستطع فبقلبه وهذا للعوام.

- المدارس الشرعية تقرر التركيز على بنائها وتعميمها حتى عام ٢٠٠٠ ثم وبعد أن يستقر الوعى الدينى فى أذهان الناس نعطى الفرصة للتعلم فى المجالات الأخرى.

- لايجوز الاختلاط بين الرجال والنساء فى أى مكان. ويجب توفير التعليم للنساء ولكن يجب توفير معلمات قادرات على تعليم العلوم الدينية، أما في أيام الحرب فلا يمكن للمرأة أن تجد فرصة التعليم"(٢٣)

- لا يمكن الأخذ بالطريقة الانتخابية الغربية ولايجوز الأخذ بها، ولامجال لها في الإسلام، ففيها يتساوى العالم والجاهل والواعي والخامل، والحكم في الامارة يقوم على ركيزتين ، أمير المؤمنين وأهل

الشورى . واللجوء لأهل الشورى أعمال للآية الكريمة " وشاورهم في الأمر" . أما حق الأمير في اتخاذ القرارفيستنبط من الآية الكريمة "فاذا عزمت فتوكل على الله" وأصل الشورى في الإمارة قائم على المذهب الحنفي وهواستماع أمير المؤمنين لآراء مشاوريه أولاً وفي النهاية يظهر هو رأيه .

- الديمقراطية بدعة نصرانية مرفوضة .

- لا يجوز تصوير ما فيه روح.

- لا يسمح بالغناء أو الموسيقى فهما يدعوان إلى الفحشاء والأخلاق السيئة .

- "تدار الأمور في "الإمارة" وفق فرمانات يصدرها أمير المؤمنين ولهذه الفرمانات الأولوية في النفاذ"(٢٤)

- تستند الرؤية الفقهية لوضعية الإمارة إلى الحديث الشريف "يعود الإسلام غريباً كما بدأ" ويقولون نحن الغرباء.. وعلى يدينا يعود الاسلام ليصبح كما بدأ.

- "وهم يرون ان الشيعة اربعة فرق : التفضيلة وليست كافرة أما الثلاث الأخرى: الامامية الاثنا عشرية ، والاسماعيلية والثالثة التي تقول ان جبريل أخطأ في حمل الوحي الى محمد هؤلاء جميعاً كفرة.

- وأهل الذمة كاليهود والنصارى كفار . لأنهم أهل ذمة منحرفة .
ومن يدعو منهم لعقيدته يضل الناس ويجب قتله.

-أما إيران فهي لاتعرف شيئاً عن الإسلام"(٢٥)

- أما عن الافيون فالموقف منه غاية في الغرابة تعاطيه حرام لكن زراعته مسموح بها .

ويقول تقرير للأمم المتحدة "إن تجارة الأفيون علنية في أفغانستان، وفي منطقة سانجيان سوق بها ٢٠٠٠ محل اسمه سوق الأفيون ، ويشير التقرير إلى أن ٨٠٪ من الهيروين المستهلك في أوربا يأتي من الأفيون الأفغاني " (٢٦)

ويبرر قادة طالبان سماحهم بزراعة الأفيون بأنه مصدر رزق للسكان ، ويقولون انهم سيمنعونها عندما يجد هؤلاء السكان مصدر رزق آخر . ويستندون الى القول الشرعي "الضرورات تبيح المحظورات".

ويقول تقرير الامم المتحدة :"ان الحكومة الأفغانية تزعم انها تحرم زراعة الافيون لكنها تحصل من زراعه على العشر" والعشر شرعاً هو زكاة الزروع.

وقد زاد إنتاج الأفيون عام ١٩٨٨بنسبة ١٦٪ عنه في العام السابق . بل ان ولاية بغلان زاد انتاج الافيون بها بعد استيلاء قوات

طالبان عليها بنسبة ١٨٤٪. وقيمة الأفيون الأفغاني تبلغ ١٥٥مليون دولار أي أنه المحصول الأول في البلاد"(٢٧)

ثم نأتي بعد ذلك إلى علاقة "الإمارة" وأمير المؤمنين بأسامة بن لادن.

في حديث نادر أجراه عبد الحليم غزالي مع الملا محمد عمر قال عن أسامة بن لادن "هو ضيف يجب علينا احترامه وحمايته، لكننا لانسمح لأحد بأن يمارس نشاطاً ضد الآخرين مادام هو في بلدنا(٢٨) أما وكيل أحمد متوكل فقد أكد " لقد أجبنا على اتهامات الأمريكان بأنه يمول هجمات ضدهم ويصدر الأوامر بتنفيذها، بأن طالبان لم تسمح له بممارسة أي نشاط منذ قدومه إلى أفغانستان في الفترة الأخيرة عام ١٩٩٦" وقال " لقد جاءنا بيل ريتشاردسون(المندوب السامي الأمريكي في الأمم المتحدة) وأراد أن يقنعنا بأن أسامة بن لادن شخص خطير وإرهابي فقلنا له هذا الرجل جاهد معنا في الحرب ضد السوفييت ومن حقه أن يظل معنا . وعرضوا علينا الاعتراف بنا كدولة مقابل أن نسلمهم ابن لادن فرفضنا" (٢٩) أما الملا محمد حسن رحماني حاكم ولاية قندهار فقد قال "لقد اتفقنا مع ابن لادن على ألا يمارس أي نشاط ضد الآخرين ، أمريكا أوغيرها، ولكن مع الأسف نقض الاتفاق واتصل بصحافيين

بعد الهجوم على الأمريكي على الإمارة وقال إنه سيقوم بنشاط في الخارج ، فاتصل به أمير المؤمنين وأخذ منه تعهداً جديداً بعدم ممارسة أي نشاط سياسي مادام يعيش في أفغانستان ، ونحن نطمئن الآخرين بأنه لن يمارس أي نشاط مستقبلاً بعد تعهده الأخير" وتابع قائلاً "ليس لأمريكا حق في تسلم ابن لادن لاشرعياً ولا دولياً فهو لاجيء سياسي ، واذا هددتنا أمريكا فنحن مستعدون للتصدي لها ، ونحن لانرى أنه قام بأية جريمة تستحق المحاكمة" وقال "ليس صحيحاً أن كل من يقتل يكون قد تعلم القتل في أفغانستان ونحن ليس لنا أدنى علاقة بالجماعات التي تسمي إرهابية في مصر والجزائر"(٣٠) (كان أيمن الظواهري مقيماً ونشطاً هناك).

أما الملا محمد حسن أخوند وزير خارجية طالبان فقد قال "ان أمير المؤمنين غضب من ابن لادن لعقده مؤتمراً صحفياً دون استئذان من طالبان اطلق فيه تهديدات ضد أمريكا بعد أيام من من قصف المعسكرات في خوست" وقال إنه شخصياً "كان مع انزال عقوبة به لكن أمير المؤمنين أخذ ميثاقاً منه بألا يكرر ذلك مستقبلاً ، وذلك بعد أن اعتذر له ابن لادن واعترف بخطئه" (٣١)

وبرغم ذلك ظل ابن لادن يمارس ما أراد من ترتيبات وأنشطة .

وفي أكتوبر ١٩٩٨عقد في كابول مجلس الشورى الموسع والذي

يسـمى "أهل الحل والعـقـد" ويضم ١٥٠٠من كـبـار رجـال الدين .. وأصدر المجلس بياناً أكد فيه على رفضه للإرهاب والأعمال الإرهابية وتدريب الإرهابيين في الأراضي الأفـغـانيـة ، أو انطلاق أعـمـال الإرهابية من أراضيها ضد أي بلد كان"(٣٢)

وبعد ١١سبتمبر ، وبعد التهديدات الشديدة من جانب أمريكا انعقد ذات المجلس وأصدر قراراً ناشد فيه اسامة بن لادن أن يغادر الإمارة طواعية لكنه لم يفعل .. وبدأت الإمارة في مناورات غير متقنة اذ أعلنت ان ابن لادن اختفى ولا تعرف مكانه. لكن أحداً لم يصدق ذلك .

والسؤال هو لماذا هذا الموقف المتردد..؟هناك أمران كان الخيار بينهما صعب بل وشديد الصعوبة بالنسبة للملا عمر. كانت الامارة تخشى الغضب الأمريكي والذي توقع الجميع أن يتحول الى ضربة ساحقة وقد عبر عن هذه الخشية الملا محمد حسن رحماني حاكم ولاية قندهار قائلاً "الحرب مستمرة في افغانستان منذ ٢٠عاماً ، وقد دمرت بلادنا خلال هذه الحرب مادياً ومعنويا، ومهمتنا هي بناء أفغانستان من جديد، ومساعدة المجاهدين هنا أو هناك ليس في قدرتنا، ولا نريد التدخل في شئون الآخرين أبداً، والآن نحن نواجه صعوبات ومشاكل عديدة، ونحن لانفكر في البلاد الأخرى، وهناك من

يخاف منا دون ميرر ويلاسبب، نحن لانفكر في محاربة أحد"(٣٣)

أما الخيار الآخر الصعب فهو اغضاب التيار العام في صفوف طالبان، وهوتيار تكون على أساس مقولات "جهادية" وان "أمريكا هي العدو" و "الشيطان الأكبر" ، ومن هنا فان الكثيرين من كوادر طالبان كانوا معجبين بابن لادن ، وكانوا على استعداد للتمرد دفاعا عنه.

وهكذا فان الملا عمر كان في واقع الأمر أسيراً لأفكار متشددة غرسها بيديه فنمت لتثمر شوكاً حاصرة ثم دمره.

وبين شقي الرحى عاشت الامارة . وكان ابن لادن يعرف ذلك جيداً، فواصل عمله ضد الأمريكيين ليزداد تمسك الكوادر الطالبانية به . وقد كان .

ثم كان ماكان . وانتهى كل شيء

* * *

ويبقى بعد ذلك سؤال يلح وبشدة.

لماذا يندمج هؤلاء المتأسلمون في الدراما التي يحبكون أطرافها بأيديهم. فيصدقون مانسجوا من خيالات وينتهي بهم الأمر الى ان يخوضوا معارك تنتهي دوماً بهزيمة قاسية؟.

لماذا كانوا كذلك دوماً؟.

الإخوان المسلمون (١٩٤٨) و (١٩٥٦) وصالح سرية ثم شكري

مصطفى ثم الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد ، ثم عمر عبدالرحمن في أمريكا ، ثم...ثم١١سبتمبر؟

هذا السؤال يحتاج إلى إجابة متأنية.

فهل كان هؤلاء جميعاً يتطرفون في الفكر ثم يصدقون تطرفهم . يشربون من بئر التأسلم المرير ثم يمارسونه عملاً فيحاصرهم بالتطرف ؟ وألف هل أخرى تفرض علينا أن نبحث عن اجابة .

ويرغم أن البدايات عميقة في بئر التاريخ الإسلامي إلا أننا سنتوقف عند نقطة هامة ، وربما كانت فاصلة وهي الفكر أو المعتقد الشيعي، "فجميع أهل الشيعة تقريباً يسلمون بأن الأئمة هم الذين وصفهم القرآن الكريم بالراسخين في العلم ، ولذلك فانهم وحدهم دون بسواهم بعد النبي محمد(صلعم) ماعدا الله تعالى ذاته يعلمون بدقة متناهية المعنى الحقيقي للكلمة المقدسة"(٣٤)

ويميز الكرمائي بين "النطقاء" وهم الأنبياء الذين يأتون بشريعة وكتاب مقدس ، أما "الأسس" فهم خلفاؤهم المباشرون والمتتابعون ويعملون على تقديم التأويل لتلك الشريعة والكتب المقدسة ذاتها.(٣٥)

ويرى المفكرون الشيعة أن "الأسس"أو "الراسخون في العلم" هم وحدهم المؤهلون للتعرف بدقة متناهية على المعنى الكامن في النص. بل لعلهم أيضاً – عند الكثيرين من مفكري الشيعة – يصلون الى

معرفة المغزى "الباطن" والقوى"الكامنة"خلفه وان كانت مستورة في مستوى خارج أو خلف الرمز الوارد في النص.

وبرغم أن كل من نتحدث عنهم هم من السنةالا أنهم قد تأثروا بفكرة"الراسخون في العلم" وأعطوا لأنفسهم هذه الصفة، وصدقوا ذلك ، فاستمدوا من هذا التصديق الحق في الاعتقاد بأنهم العارفون بالمعنى الكامن للنص وان اختلفوا عن الشيعة فى انهم تمسكوا بحرفيته ولم يقبلوا أي تأويل بعيد عنه . بل وأحياناً لم يقبلوا أي اجتهاد. أو كما يقول شكري مصطفى "فقط قال الله وقال الرسول ، لاقياس ولاتأويل ولا إجماع"

ونقدم مثالاً مفجعا لفكر شكرى مصطفى اذ يقول: "جاء في الحديث نحن أمة أمية لاتقرأ ولا تحسب. والرسول(صلعم) لايقرأ وكان في قدرته أن يقرأ ويحسب. والرسول قال نحن أمة أمية أي نحن جميعاً". ثم "ولقد خرجت كما هو معلوم من هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس. أي أن خير أمة أخرجت للناس أمة أمية ، ويقصد بالأمة الأمية عموم أهل الأمة وغالبيتها ، ولامانع من وجود قراء وكتاب في هذه الأمة ولكن بقدر الضرورة"(٣٦). ثم يعود ليؤكد"والذي نعنيه من ذلك أن جماعة الحق في آخر الزمان ، التي ستخرج للناس مرة ثانية سمتها وعمومها أنها أمة أمية لأنها تدخل

في قول الرسول : نحن أمة أمية".

وشكرى مصطفى لمن لا يعلم أتى مثل كثير من المتأسلمين من عباءة جماعة الإخوان، كان معهم، وفى سجن طره تأثر بأفكار سيد قطب فأخذ يصيح فى قادة الإخوان عاتباً عليهم "من العار على المسلمين أن يمسك بهم كالدجاج دون مقاومة، كنتم تكذبون على أنفسكم وعلى الناس عندما كنتم تقولون: الموت فى سبيل الله أغلى أمانينا"(٣٧).

ثم نأتي إلى موضوعنا .. كيف تصور شكري مصطفى(أمير آخر الزمان) معركته ضد العدو (أو كما أسماه روم العصر) ونسمع اليه اذ يقول "الضابط في ذلك أن ما جاء بنص عام يبين أن هذا الأمر من دين الله، وأنه من أعمال المسلمين وأنه لايكون إيمان بغيره . واذا جاءت النصوص بهذه الصورة فحينئذ يلزمنا الاتباع . فمثلاً عندما يقول الله سبحانه "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" فهو خطاب موجه إلى المسلمين فى أول الزمان ، وفي آخر الزمان. والقوة كما جاء في الحديث هي الرمي، والخيل هي الخيل . فاذا جاء من يقول إن الخيل لاتصلح الآن فنقول له نحن عندما نقاتل سيكون قتالنا بالسيف والرمي والخيل " ثم "وقد جاء في الحديث الشريف الجنة تحت ظلال السيوف، فالجنة هي الجنة والسيف هو السيف،

ولوشــاء الرســول لقــال الجنة تحت ظلال الأسلحــة أو تحت ظلال البنادق".

ونمضي مع شكري مــصطفى لنزداد دهشــة "أن الوســائل الاسلاميـة في القتـال تنبثق من الأصـول الاسلاميـة للمسلمين ، الكافـرون يقـاتلون مثـلاً في قـرى مـحصنة أو من وراء جدار، أمـا أسلوب القتـال عند المسلمين فهو ينبثق من الأصـول الإسلاميـة في القتال ، وهي مواجهة رجل لرجل لأنها نفوس باعت الدنيا واشترت الآخرة . أن أصول الكافرين في القتال أصول كانت نتاجاً طبيعياً لمعصية الله سبحانه، وهي أعدت بأموال كافرة ، وأصول كافرة، ولقد صنعتها الجاهلية بجاهليتها وليس بايمانها وتقواها ، اذن فيكون أسلوبهم معتمداً على الوسائل الجاهلية"

ويواصل " قاتل النبي بالسيف ، والجماعة المسلمة من بعده قاتلت بالســيف، والجــمــاعــة المسلمــة في أخــر الزمــان ســتــقــاتل بالسيف"(٣٨)..."وعندما ستعود الدولة المسلمة بالجماعة المسلمة فإن الرماية ستعود وأن الخيل ستعود. فوسيلة المسلمين في القتال وسيلة متكررة ، وأن الله برحمته وبعزته قد برأ الجماعة المسلمة من وسائل الكافرين الجاهلية الحديثة"(٣٩)

ويواصل شكري مصطفى في توسماته قائلاً إن تابعه سأله وكيف

نواجـه صـواريخ ودبابات روم العـصـر (وهـم كـمـا قـال الاتحـاد السـوفـييتي وأمـريكا) فـأجـبته"قـال تعالى : وكان حـقا علينا نصر المؤمنين . وهكذا علمنا أن الله برحمته وعزته سيهلك الكافرين، وبهذا يتحقق الأمل المرجو .. ونصبح في غنى عن اعداد قوة من صواريخ ومدافع" ، ثم يكمل في حسم " يومها سيقول الحجر تعالى يا مؤمن هناك رومي يختبيء خلفي ثم تجد الحجر وقد دك رأسه"(٤٠)

فقط نذكر أن شكري مصطفى وأتباعه عندما اختطفوا الشيخ الذهبي كانوا حاملين أسلحة نارية ثم قتلوه بطلق ناري من مسدس، وهو متاع جاهلي كافر.

وقبل شكري مصطفى كان صالح سرية "جماعة شباب محمد" وهوأيضاً صاح في وجه الجميع مؤكداً "ان كل الأنظمة العربية وكل البلدان الآسلامية اتخذت مناهج ونظماً وتشريعات غير الكتاب والسنة ، ولهذا فقد كفرت بالله ، واتخذت من نفسها آلهة وأرباباً فكل من أطاعها فهو كافر لأنه اتخذ له رباً سوى الله. ومن مات منهم دفاعاً عن حكومات الكفر ضد من قاموا لاقامة الدولة الاسلامية كفار، الا اذا كانوا مكرهين فانهم يقتلون ثم يبعثون على نياتهم"(٤١)

وكان من فرط ثقته في نفسه وفي النصر الحتمي يعتقد جازماً أن حفنة من طلبة الكلية الفنية العسكرية سيمكنهم الاستيلاء على

السلطة. وفي ١٧-٤-١٩٧٤تحرك الطلاب وبسذاجة شديدة، وقبض عليهم والمثير للدهشة انهم اعترفوا وعلى الفور باسم زعيمهم، والأكثر اثارة للدهشة ان صالح سرية كان قد صدق نفسه فعلاً فأعد بياناً ليذاع في الاذاعة والتليفزيون وكتبه بخطه وكان عنوانه "بيان من صالح سرية رئيس الجمهورية" "بسم الله الرحمن الرحيم قل أللهم مالك الملك تعز من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتذل من تشاء، بيدك الخير أنك على شيء قدير، أيها الشعب الحبيب، أيتها الأمة المجاهدة الصابرة، لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم في السيطرة على الحكم، واعتقال جميع المسئولين عن النظام السابق وبدء عهد جديد"(٤٢)

أما أيمن الظواهري فقد شرب من هذه الآبار جميعاً.. وتحدث طويلاً عن أهمية الأخذ بالأسباب ، والاعداد الدقيق لخطط "الجهاد" وتهكم قائلاً "انهم يقولون عنا اننا انصاف مجانين لأننا نتصور قدرتنا علي هزيمة أمريكا ومن معها من اليهودية والمسيحية العالمية، ونسألهم ألم نهزم الاتحاد السوفييتي أكبر قوة برية في العالم؟"(٤٣)

ورأينا أيضاً كيف أن ملا مجمد عمر قال"نتوكل على الله ونأخذ بالأسباب"(٤٤) لكن أحداً منهم لم يأخذ بالأسباب أخذاً فعلياً. كان الأخذ بالأسباب عندهم منصباً على التستر والاتقان في توجيه

الضربة، والقدرة على تدمير أكبر قدر من رموز الخصم، لكن كان هناك يقينهم بأنهم هم "الراسخون في العلم" وأنهم كما قال زعيمهم الحديث سيد قطب "الأعلى سنداً، والأعلى قدراً" أنه ما أسمى فى أدبياتهم بالاستعلاء بالايمان(٤٥)

ولعل هذا قد افقدهم توازنهم فعجزوا عن رؤية حقيقية لتوازنات القوى.

والأخذ بالأسباب لا يعنى فقط اتقان الضربة ، واتقان تنفيذها، واتقان التستر، وأنما يعنى وقبل هذا كله رؤية تستشرف النتائج المباشرة وغير المباشرة، وتداعيات هذه النتائج.

هم دوما يرددون الآية الكريمة "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" لكنهم لم يسألوا أنفسهم نصرهم فى ماذا؟ ولماذا؟ وضد من؟ أو هل هم المقصودون حقا بالمؤمنين أم لا؟

وهم يرددون دوماً لأنفسهم ولنا كيف حارب الملائكة مع المؤمنين فى غزوة بدر، لكنهم لم يسألوا أنفسهم أين كان الملائكة يوم "أحد". ولماذا هزم الرسول والأنصار؟ فلو نزلت الملائكة في غزوة أحد لما استعد المسلمون أبداً، ولما حاربوا، بشكل جدي ولسيطر عليهم التواكل انتظاراً للملائكة.

فالأخذ بالأسباب يعنى تقييم الأوضاع، ولكنهم فى غمرة

حماسهم، واستحسانهم لأفكارهم، وترفعهم على الآخرين، أو ما يسمونه الاستعلاء بالأيمان. يتيهون خيلاء باستعلائهم.. فيكون ما كان.

ويتكرر الأمر، يتكرر ولايتعلمون.

فهل هذه الصفة لصيقة بالتأسلم؟ ربما.

* * *

لكن الحديث عن التأسلم وما يستدعيه من اندفاع غير محسوب العواقب لا يكتمل – في اعتقادنا – إلا بمطالعة بعض مايصل إليه المتأسلمون من جنون وربما من افتقاد الذكاء.

فالجهل المتأسلم يتجلى في كثير من الكتابات لعل أفدحها هو ما سنستعرضه الآن. فثمة كتاب وزع في الأسواق منذ عدة سنوات ، ثم عاد إليه البعض خلال الأيام الأولى من الغزو الأمريكي للعراق، والكتاب عنوانه يكفي ويزيد"البيان النبوي بانتصار العراقيين على الروم(أمريكا وبريطانيا) والترك وتدمير إسرائيل وتحرير الأقصى" أما المؤلف فيقدم نفسه كما يلي "الأستاذ الدكتور فاروق الدسوقي الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية "وأنه عمل كأستاذ للعقيدة بجامعتي الملك سعود وأم القرى سابقاً". ويقوم الكتاب على فكرة واحدة خلاصتها أن ثمة أدلة قرآنية وأخرى في

السنّة وثالثة في الكتب السماوية الأخرى يتوجب علينا دراستها لنتعرف على كل ما وقع، وكل ما سيقع حتى قيام الساعة . وأن "الروم" (الأمريكيين والأنجليز) يدرسونها ويستفيدون منها بينما نحن غافلون عنها . "إن مجالس الأمن القومية في الدول العظمى بعامة، وفي الولايات المتحدة بخاصة ترجع إلى الكتاب المقدس والقرآن والسنة، ثم المنجمين والكهان" وأن "أخطر ما يمكن أن يفيدهم هو ما جاء في القرآن اوالسنة عن أنباء المستقبل، وآخر الزمان، وعلامات الساعة، وأماراتها، وبخاصة ما جاء عن الحروب والصراعات والملاحم التي بينهم وبين المسلمين، وذلك ليستعدوا، وليخططوا على أساس هذه الأخبار" (٤٦)

ونمضي مع المؤلف إذ يتحدث عن "أشراط" قيام الساعة فينقل عن الحافظ بن كثير (المتوفي ٧٧٤ أي بعد الهجرة بحوالي ثمانية قرون إلا قليلاً) ترتيب حدوث هذه الأشراط كما ورد في كتابه "البداية والنهاية في الفتن والملاحم" والترتيب كالتالي:

المهدي- فتح القسطنطينية ورومية أي غزو أوربا - خروج الدجال - نزول المسيح عليه السلام وقتله للدجال- خروج يأجوج ومأجوج - ثم الدابة - طلوع الشمس من مغربها- الدخان من السماء"(٤٧)

لكن الأستاذ الدكتور يعتب على ابن كثير أنه لم يورد "الأشراط"

التي تسبق المهدي . ومن ثم فهو يعود إلى البرزنجي في كتابه "الإشاعة في أشراط الساعة" حيث رتب الأشراط كما يلي: السفياني - المهدي - الملحمة الكبرى وغزو الروم أي أوربا - الدجال ثم نزول المسيح عليه السلام وقتله الدجال وإبادة اليهود - خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم - خروج القحطاني والجهجاه ثم الهيثم والمقعد - طلوع الشمس من مغربها - دابة الأرض- الدخان من السماء - الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين - عقم النساء - رفع القرآن من المصاحف - رجوع الناس إلى عبادة الأوثان - النار التي تخرج من قعر عدن وهي آخر الآيات والعلامات" (٤٨)

هذه هي أشراط الساعة التي يؤكد المؤلف أن مجلس الأمن القومي الأمريكي يدرسها بعناية بينما نقصر نحن في ذلك.

لكن ما يهمنا هنا هو بدايتها أي "السفياني".. وهو صدام حسين كما يؤكد المؤلف "فهو سفياني لأنه من نسل خالد بن يزيد بن أبي سفيان كما تقول النصوص، فهو من سلالة الخلفاء والملوك الأمويين الأمجاد الذين أعز الله تعالى بهم الإسلام، فلا غرابة أن يعز الله به الأمة في زمن ذلها وينهضها من كبوتها "(٤٩)

ثم يمضي المؤلف لينسج خيط الأحداث "تتطابق أخبار السفياني في السنة الشريفة(!) مع اسم الأشوري مدمر اليهود في سفر

أشعياء. والأشوري موطنه الأصلي آشور وهي قريبة من تكريت مسقط رأس صدام حسين" ثم ولكي تزداد دهشتنا "واستناداً إلى السنة الشريفة أن السفياني يظهر أول ما يظهر بالحصار العالمي على العراق". ثم "يحارب الروم (أوربا وأمريكا) أربعين يوماً يكون هو في العراق وقائده يحاربهم في عمق الجزيرة، وليس في هذه الملحمة منتصر ولامنهزم. وهو ماكانوا يطلقون عليه حرب تحرير الكويت"(٥٠) وهو يتحدث في موقع آخر عن هذه الحرب قائلاً "لقد صمد جيش العراق أمام سبع وثلاثين دولة على رأسهم أمريكا وانجلترا وفرنسا جبابرة الأرض، أليس عجيباً أن يخرج الجيش والنظام في العراق من هذه الحرب صحيحاً واقفاً على قدميه"(٥١) .. ونمضي مع الرحلة فبعد هذه الحرب، ستقوم حرب أخرى.. يخوضها السفياني (صدام حسين) فيحارب الروم (أمريكا وانجلترا وفرنسا وغيرهم من الأوربيين والترك) ويقتل من الروم مايشبع السباع والطيور من لحومهم، ويأسر منهم مائة ألف في موضعين: قرقسياء وهي عند مصب نهر الخابور في نهر الفرات، والموضع الثاني بعاقرقوف وهواسم قرية أصبحت الآن في بغداد، وينزل بالترك ذبح الله الأعظم ويساعده الله عز وجل إما بالثلج أو الطاعون" وبعد ذلك "يظهر أمره وينتصر النصر الذي يتمكن به من دخول المسجد

الأقصى في موقعة فاصلة في وادي اليابس وهو موضع جنوب الجولان وبعدها يدخل فلسطين ويستولي على نصفها، ويصل الى القدس في يوم واحد، ويقتل من اليهود ما يجعلهم مدوسين كطين الأزقة" ثم "يحكم أكثر أرجاء المنطقة ، ويملك ملك نبوخذنصر والمدينة ومكة، علاوة على الكويت وبعض بلاد الخليج والأردن وسوريا وفلسطين ويجعل عاصمته دمشق"(٥٣)

ولا مجال لمزيد فكل الكتاب على هذه الوتيرة. يستقي من كتب تراثية ما يعود هو ليصوغه وفق هواه، وكأن هذه الروايات التى لا علاقة بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسنة ولا بالعقل بحاجة إلى مزيد من الجنون.

ولعلنا كنا نحمد للمؤلف أنه يتمادى في تحليلاته "العميقة" والمفصلة حتى يصل بنا إلى الصحاف والعلوج..إلخ.

ولست أدرى على أية حال أين يختبىء هذا المؤلف من تحليلاته وتصنيفاته، لعله يبحث عن رواية قديمة أخرى تبرر كل ما حدث.

على أية حال أنا ما أوردت هذه الأسطر على سبيل الفكاهة والمزاح، أو حتى على سبيل التشفي من المؤلف، وإنما لأوضح مدى الخطر الذي يقع فيه المتأسلمون إذ يطالعون هذه الكتب المليئة بالخرافات باعتبارها كل الحقيقة أو حتى باعتبارها جزءاً من

"المقدس الديني" ويبنون عليها أوهامهم في النصر الحتمي . ولعل واحداً من رجال ابن لادن أقنعه هو أيضاً بأنه هو "السفياني" وليس صدام.. وأنه..

الهوامش

١. أيمن الظواهرى – فرسان تحت راية النبى – نقلا عن الانترنت
٢. المرجع السابق – صـ٢٥
٣. أيمن الظاهرى – الحصاد المر – الإخوان المسلمون فى ستين عاماً – من مطبوعات جماعة الجهاد – صـ٢١ وأيضاً – أيمن الظواهرى – اشراف – نصح الأمة باجتناب فتوى الشيخ ابن باز بجواز دخول مجلس الأمة – مطبوعات جماعة الجهاد – النشرة الخامسة.
٤. أوردها نقلا عن مجلة المجتمع الكويتية – ٢ سبتمبر ١٩٨٨
٥. أيمن الظواهرى – فرسان تحت راية النبى – المرجع السابق – صـ٥
٦. المرجع السابق – صـ٦
٧. المرجع السابق – صـ١١
٨. المرجع السابق – صـ١٣
٩. المرجع السابق – صـ٢٦
١٠. المرجع السابق – صـ٤٦
١١. المرجع السابق – صـ٤٨
١٢. المرجع السابق– صـ٥٣
١٣. أيمن الظواهرى – شفاء صدور المؤمنين – صـ٣
١٤. القاهرة – دراسة بعنوان: الزعيم الحقيقى الذى يختفى وراءه بن لادن – بقلم عبد الرحيم على
١٥. حوار مسجل بصوت أسامة بن لادن مع الصحفى جمال اسماعيل. سبتمبر

١٩٩٨.
١٦. عبد الرحيم على – أسامة بن لادن، الشبح الذى صنعته أمريكا – القاهرة – (٢٠٠١) – صـ٤٣
١٧. نص بيان أذاعته قناة الجزيرة بصوت أسامة بن لادن.
١٨. نص بيان لأسامة بن لادن أذاعته قناة الجزيرة فى ٢٥-٩-٢٠٠١.
١٩. وزارة الشئون الدينية الباكستانية – تقرير عن المدارس الدينية – إسلام آباد (١٩٩٨)
٢٠. تصريح أدلى به راشد الحق بن سميع بن عبد الحق أحد مديرى الجامعة الحقانية وهو ابن سميع الحق رئيس جمعية علماء الإسلام الباكستانية للصحفيين – أكتوبر ١٩٩٨.
٢١. تصريح لمولوى وكيل أحمد متوكل المستشار السياسى لملا محمد عمر – سبتمبر ١٩٩٨.
٢٢. عبد الحليم غزالى – طالبان العمائم والمدافع والأفيون – أمراء الجهاد فى أفغانستان – القاهرة – ٢٠٠٠ – صـ٣٥
٢٣. المرجع السابق – صـ٣٩
٢٤. المرجع السابق – صـ١٠٣
٢٥. المرجع السابق – صـ٤٣
٢٦. الأمم المتحدة – اللجنة الدولية لمكافحة المخدرات – ١٩٩٨
٢٧. المرجع السابق
٢٨. عبد الحليم غزالى – المرجع السابق – صـ١٧٥
٢٩. المرجع السابق – صـ١٧٦
٣٠. المرجع السابق – صـ١٧٧
٣١. المرجع السابق – صـ١٧٨

٣٢. المرجع السابق – صـ٩٠
٣٣. المرجع السابق – صـ٦٧
٣٤. بول ووكر – الفكر الإسماعيلى فى عصر الحاكم بأمر الله – ترجمة سيف الدين القصير – دمشق (١٩٨٠) – صـ١٠١
٣٥. حميد الدين الكرمانى – الرسالة الحاوية فى الليل والنهار – ٣٩٩ هجرية. وقد صنفها المؤلف رداً على التساؤل حول أولوية وربما أفضلية الناطق أم الأساس.
٣٦. شكرى مصطفى – التوسمات – المرجع السابق – صـ٢٥
٣٧. أحمد رائف – سراديب الشيطان صفحات من تاريخ الإخوان (١٩٨٩) – صـ٥٣
٣٨. شكرى مصطفى – التوسمات – المرجع السابق – صـ٥٦
٣٩. المرجع السابق – صـ٥٨
٤٠. المرجع السابق – صـ٥٩
٤١. صالح سرية – رسالة الايمان – صـ١٨
٤٢. حيثيات الحكم الصادر فى قضية "جماعة شباب محمد" المعروفة إعلامياً بقضية الفنية العسكرية.
٤٣. أيمن الظواهرى – فرسان تحت راية النبى – المرجع السابق– صـ٣٧
٤٤. عبد الحليم غزالى – طالبان العمائم والمدافع والأفيون – المرجع السابق – صـ٣٤
٤٥. سيد قطب – معالم فى الطريق. صـ٣٤
٤٦. الأستاذ الدكتور فاروق الدسوقى – البيان النبوى بانتصار العراقيين على الروم (أمريكا وبريطانيا) والترك وتدمير إسرائيل وتحرير الأقصى – الطبعة الثانية (١٩٩٨) – صـ١٧

٤٧. نقلا عن: الحافظ بن كثير - البداية والنهاية فى الفتن والملاحم - صـ١٨٢

٤٨. البرزنجى - الإشاعة فى أشراط الساعة

٤٩. د.فاروق الدسوقى - المرجع السابق - صـ٢٠

٥٠. المرجع السابق - صـ٢٧

٥١. المرجع السابق - صـ١٠

٥٢. المرجع السابق - صـ٢٤

القرآن لا ينطق وهو مكتوب
وإنما ينطق به البشر، وهو حمال أوجه .
علي ابن أبي طالب

الحرية هي استقلال الإنسان عن أي شئ
فيما عدا القانون الخلقي وحده .
الجاحظ

الديمقراطية في الفكر الإسلامى
رؤى متناقضة

لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل دوماً متعلقة بل ونابعة من معطيات إجتماعية ومجتمعية اقتصادية وحضارية ومعرفية وسياسية محددة، فقد جاءت هذه العلاقة فى القرآن والسنة تطويراً لما هو قائم. وأى تطوير لكى يأتى ممكناً ومقبولاً ـ ولو حتى بشكل محدود يجب ألا يتجاوز ـ بصورة كبيرة ـ حدود ما هو قائم من معطيات.

وكانت «الشورى» هى التطوير الأمثل النابع من «حلف الفضول» ومن التراث والتقاليد القائمة.

ولكن ولأن الإسلام خاتم الديانات. ولأنه ممتد التوجه والتوجيه زماناً ومكاناً بغير حدود، فقد جاءت «الشورى» مجملة ودون تفاصيل. فالمبدأ الفقهى الأساسى «أن ما يتناهى لا يضبط ما لا يتناهى» ومن ثم تركت التفاصيل والتفاسير حول طبيعة وحدود وممكنات وأشكال «الشورى» لتكون محلاً للمفاضلة والفحص والاختيار الإنسانى وفقاً لمعطيات وممكنات الزمان والمكان.

وهكذا تداخل ما هو إنسانى فى هذه القضية تداخلاً حاداً، لكنه

وفى كثير من الأحيان كسى نفسه بكساء صحيح أو مفتعل من الدين.

تضاربت الآراء والتفاسير والفتاوى والحجج ولكنها إرتدت وفى كل حال من أحوال تناقضها ثياباً دينية أو حتى مجتمعية، وكان الاختيار من بين هذه الخيارات إنحيازاً إنسانياً يعكس موقف وفكر صاحبه. لكنه وفى كل آن يؤكد أنه صحيح الدين وأن الآخر ليس كذلك.

وإذا كان أبوالحسن بن الهيثم (٩٦٥ هـ ـ ١٠٣٩م) قد حاول أن يستدعى قدراً من العقلانية إلى هذا المعترك، فإن المصالح والرغبة فى الاستبداد بالحكم وبالرعية قد فرضت غمامات على رأى بن الهيثم وربما داست عليه متهمة أياه بالهرطقة أو بالتهاون فى حقوق الإسلام والمسلمين.

فإذ قال ابن الهيثم «كل مذهبين مختلفين إما أن يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً، وإما أن يكونا جميعاً كاذبين، وإما أن يكونا جميعاً يؤديان إلى معنى واحد وهو الحقيقة. فإذا تحقق الإنسان فى البحث، وأنعم فيه النظر ظهر الاتفاق وإنتهى الخلاف».

لكن هذا المنطق العقلانى غاب فى غابة شهوات الحكام للتحكم فى الحكم وفى الرعية، وفى غابة النفاق غير المحدود الذى تطوع به «مثقفوا» هذا الزمان، وهم الفقهاء والعلماء والشعراء أى الوسائط المفترضة بين الحاكم والرعية.

ولأن سيف المعز وذهبه تآلفا معاً على الدوام، فقد كان الاختيار إنحيازاً للذهب وتجنباً للسيف. إلا فيما ندر.

ولأن الخوض فى هذا الأمر يقتادنا إلى فيض لا ينتهى من المواقف والانحيازات فسوف نكتفى وبإيجاز شديد بأمثلة محدودة ومحددة.

فعلى صعيد الفتيا تطوع أبوبكر الطرطوشى لتبرير إستبداد الحاكم «فالله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الإنصاف، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقر لهم معاش. ومن الحكم التى وردت فى إقامة السلطان أنه من حجج الله على وجوده سبحانه، ومن علاماته على توحيده، العالم بأسره فى سلطان الله كالبلد الواحد فى يد سلطان الأرض».

وهكذا رضى فقيه على دينه وعلى نفسه أن يعتبر أن إستبداد الحاكم هو بذاته إعتراف بسلطان الله على الكون وعلى وحدانيته بهذا السلطان. فمن - بعد هذه الفتوى - يستطيع أن ينازع السلطان فى سلطانه، والحاكم فى أحكامه؟

وثمة حجة أخرى عند الطرطوشى، وما أكثر ما أورد من حجج «كذلك السلطان إذا كان قاهراً لرعيته كانت المنفعة به عامة، وكانت الدماء فى أهبها محقونة، والحرم فى خدورهن مصونة، والأسواق عامرة، والأموال محروسة»(١).

فإذا أتينا إلى محاولة أكثر فداحة، وهى تبرير إمعان الحاكم فى قتل الأبرياء من رعيته نجد فقيهاً آخر هو ابن كثير، وكثيرون - وعلى مر العصور - يستندون إليه، نجده يبرر جرائم الحاكم قائلاً «إن للقاتل توبة، فإن تاب بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول عن ظلامته، وأرضاه عن ظالميه».

وهكذا فالقاتل تكفيه التوبة. بل هى تبدل سيئاته حسنات، وهو ليس ملزماً بالدية فالله يعوض أهل المقتول. لكن الحاكم لا يشبع من دماء رعيته، ويعود ابن كثير ليسهل عليه الأمر فيقول: «إن من قتل مائة نفس له توبة» ولست أعرف من أين أتى ابن كثير بهذا اللغو. ولا أدرى كيف نسى ابن كثير أو تناسى الآية الكريمة «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً» (النساء٩٣).

ومهما فعل الحاكم فالرعية مأمورة بالخضوع له، أو هكذا أكد الماوردى «إن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للإمام لا يجوز لمخلوق نقضها، لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام، ما وسعتهم الطاعة، ولا يحل لهم القيام عليه بحال»(٢).

وهكذا نسى الفقهاء فى غمرة تملقهم للحاكم، المبادئ الأولى فى الشريعة الإسلامية، ونسوا أن «بيعة» المكرة لا تقع ولا يعتد بها.

فإذا أتينا إلى العلماء إخترنا نموذجاً واحداً، لكنه ليس وحيداً. المعلم الثانى أبونصر الفارابى (توفى ٣٣٩هـ)، الذى طالع علوم الإغريق وطوعها وفق التراث والموروث فى مجتمعه.. يقول: «وكما أن العضو الرئيسى فى البدن هو بالطبع أكمل أعضائه وإنما فى نفسه وفيما يخصه، وله من كل ما يشارك فيه عضو أفضله.. كذلك رئيس المدينة «الفاضلة» هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه. وكما أن القلب يتكون أولاً ثم يكون هو السبب فى أن يكون سائر أعضاء البدن، كذلك رئيس هذه المدينة ينبغى أن يكون أولاً ثم يكون هو السبب فى أن تحصل المدينة وأجزاؤها»(٣)، ثم هو يصف الحاكم فيجعل منه نصف آله أو أكثر «إياه يُقصد بجميع أفعال المدينة الفاضلة، ويكون ذلك الإنسان لا يرأسه إنسان أصلاً، وإنما يكون ذلك الإنسان قد إستكمل فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل، وقد إستكملت قوته المتخيلة بالفعل غاية الكمال»(٤)، ثم «هذا الرئيس هو فى أكمل مراتب الإنسانية، وفى أعلى درجات السعادة، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال، وهذا الإنسان هو الذى يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة، فهذا أول شرائط الرئيس، ثم يكون له مع ذلك قدرة بلسانه على جودة التخيل بالقول لكل ما يعمله، وقدرة على جودة الإرشاد إلى السعادة، وإلى الأعمال التى تبلغ بها السعادة»(٥).

وأما الشعراء فقد كانوا فى أغلبهم يُسخرون بلاغتهم وبحور شعرهم فى تملق الحكام وإستعطاء عطاياهم. ولنستمع :

إن الخليفــــــــــة قد أبى

وإذا أبى شيئـــــاً أبيتــــــــه

ولنقرأ قول الفرزدق:

فالأرض للــــه ولاها خليفتــه

وصاحب الله فيها غير مغلوب

ويتفوق عليه جرير إذ يقول:

ذو العرش قدَّر أن تكون خليفة

وملكت فاعلُ على المنابر واسلم

لكن ابن هانئ الأندلسى يتفوق على الجميع فى نفاق يصل به إلى الهرطقة:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمــــد

وكأنما أنصـــارك الأنصار

وفى ظل هذه المظلة التى نسجت من فقه متأسلم كرس نفسه لإسترضاء أو إستجداء الحاكم، وعلماء مثلهم مثل هؤلاء الفقهاء،

وشعراء أسوأ وفإن أكوام هذا النفاق لم تكن سوى ثمار مفترضة إجتماعياً وسياسياً وفكرياً. وبرغم محاولات عديدة للتمرد على هذه المظلة، والعودة إلى صحيح الفكرة الإسلامية عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم. فإن مظلة تأليه الحاكم وتكريس إستبداده وتبريره بطلائه طلاءً دينياً ظلت هى السائدة على مر العصور.

ونمضى فى رحلتنا لإظهار الفارق الواضح بين صحيح الإسلام وبين التستر خلف الإسلام لتحقيق مآرب شخصية .. ونصل إلى زمن الغزو العثمانى لمصر.

كان سلطان مصر فى هذا الزمان هو قنصوه الغوري، وكان قد أناط بنفسه رعاية الأماكن المقدسة سواء فى مكة أو المدينة أو القدس، وكان مسئولا عن صناعة كسوة الكعبة وإرسالها مع المحمل.. وكان يسمى نفسه «خادم الحرمين الشريفين». لكن الطغيان العثمانى كان طاغيا وكان السلطان سليم يريد أن يحكم مصر بأى ثمن. ولما علم قنصوه الغورى بأن العثمانيين يحشدون حشودهم لغزو مصر أرسل إلى السلطان سليم رسالة يقول فيها «علمنا أنك جمعت عساكرك وانك عزمت على تسييرهم علينا، فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأن كلانا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام، وتحت حكمنا مؤمنون موحدون».

فرد السلطان سليم فى كذب سافر قائلا «ويعلم الله وكفى به شهيدا أنه لم يخطر على البال قط طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو في مملكته، أو رغبة فى إلحاق الضرر به» ثم يضيف فى تأسلم واضح «الشرع الشريف ينهى عن ذلك».

لكن السلطان سليم إذ كان يريد احتلال مصر بأى ثمن لم يكن ينقصه سوى «فتوي» من رجال الدين تبيح له غزو بلد مسلم فضلا عن أنه بلد الأزهر الشريف، وأن سلطانه هو خادم الحرمين الشريفين والمسئول عن كسوة الكعبة المشرفة. وأخيرا وجد قاضى عسكر الأناضول كمال باشا زاده الثقب الذى يمكن أن يفتعل من خلاله فتوى تبيح للمسلم غزو المسلم وقتاله واستحلال دمه وماله وأرضه. لقد فتش فى القرآن الكريم حتى وجد الآية «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» ثم ماذا؟ لابد من تأويل الآية. فقام المفتى بالتأويل علي مقاس الطمع العثمانى، فالأرض هى مصر قياساً على أن الأرض وردت في مكان آخر من القرآن مشيرة إلى مصر. أما «عبادى الصالحون» فهم طبعا السلطان سليم ورجاله من العثمانيين.

واستراح الجميع إلى هذه الفتوى المتأسلمة، وسارع مفتى الاستانة الذي كان يسمى «مفتى الأنام، شيخ الإسلام» ليفتى هو

أيضا بجواز غزو مصر لماذا؟ «لأن أهلها قطاع طرق، والحرب والقتال معهم غزو وجهاد، وقاتلهم غاز ومرابط، والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد» وانطلقت جيوش الغزو مسلحة بفتاوى متأسلمة، وهزم جيش قنصوه الغورى فى فلسطين، وتولي حكم مصر طومان باى. ومن على الحدود المصرية أرسل سليم الأول إلى الحاكم الجديد قائلا «إن الله قد أوصى إلى بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر نو القرنين» ثم قال «أنا خليفة الله فى أرضه، وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين» وهكذا من الفتوى المتأسلمة إلى «الوحي» الذى أوحى به إلى السلطان تنساب الأكاذيب المتأسلمة.

ويصف المؤرخ المصرى «ابن إياس» هذا الغزو المتأسلم قائلا أن «العثمانيين اتجهوا إلى الطحانين فأخذوا البغال والخيول، وأخذوا جمال السقايين ونهبوا كل ما فى شون القمح من غلال» ثم «صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم وحتى أبواب بيوتهم وخشب السقوف أخذوه، ثم صاروا يخطفون العمايم، ويعرون الناس فى الأماكن المفردة من بعد العشاء».

وقد بدأ السلطان سليم جرائمه فى مصر بشنق حاكم مصر طومان باى على باب زويلة.. ولم يغفر له المصريون ذلك أبداً وظلوا

وحتى الآن يقرأون الفاتحة كلما مروا بالقرب من الباب ترحما على السلطان الشجاع الذى قاتل الغزاة العثمانيين، بل صاروا يتبركون بالمكان وأسموه بوابة المتولي، وكان «المتولي» اسما قديما لطومان باي.

ويمضى ابن إياس متحدثا عن جرائم العثمانيين «صار العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ويقولون لهم أنتم من المماليك الجراكسة، فيشهدون الناس عندهم أنهم ما هم مماليك جراكسة، فيقولون لهم اشتروا أنفسكم منا بدلا من القتل، فيأخذون منهم بحسبما يختارونه من المال» وأرسل سليم واحداً من أكثر رجاله توحشاً هو «جان بردى الغزالي» فى تجريده إلى الشرقية «فوصل إلى نواحي التل والزمرونين والزنكلون ونهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج بل وقام بأسر الصبيان وسبى البنات باعتبار أنهم أبناء كفار وراح يبيعهم فى القاهرة بأبخس الأثمان». وسارع المصريون «بشراء هؤلاء الصبية من سوق العبيد والجواري ثم يهبونهم لأهاليهم» «فاشترى أحدهم بنتا بأربعة اشرفية (جنيهات) ووهبها لأمها» وفوق ذلك «ثم أن العثمانية طفشت فى العوام والغلمان ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح، وصارت جثثهم مرميه من باب زويلة إلى الرميله إلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان» «بل إن العثمانيين أحرقوا جامع شيخو فاحترق سقف

الايوان والقبه» أما الوالي التركى الذي تركه سليم ليحكم مصر فقد كان كما يقول ابن إياس «يصبح وهو مخمور فيحكم فى الناس بالعسف والظلم، وما لا يسوغ الشرع فى محكمته».

ويلخص ابن إياس الغزو العثمانى بعبارة مريره «اطلقوا في مصر جمرة نار».

ويبقى أن نتذكر إن كل ذلك تم بناء -وتحت غطاء- فتوى شرعية متأسلمة. وأن المصريين ظلوا دوما يهتفون «يارب يا متجلى أهلك العثماللي».

وفي مواجهة الفقهاء الذين صاغوا فقههم فى فتاوى متأسلمة تبرر ظلم الحاكم وطغيانه، بل وتبرر له غزو بلاد إسلامية وأسر رجالها ونسائها وأخذهم عبيدا وسبايا يباعون فى سوق النخاسة. كان هناك رجال دين يجاهرون بصحيح الإسلام ويرفضون ظلم الحكام، ومن هؤلاء «الشيخ عز الدين بن عبد السلام» الذى اسماه المصريون من فرط عدله وشجاعته وقدرته على مواجهة الطغاه بترفع العالم المسلم المستند إلى شرع صحيح، ورفضه لأن يبيع دينه مقابل دنياه، أسموه «سلطان العلماء» . وقد عينه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قاضيا لقضاة الشافعية فأبرز للمصريين معنى أن يكون الإنسان قاضياً ومفتياً. «أتاه من أبلغه أن بعض الأمراء عمد إلى

مسجد بجوار بيته وعمل على ظهره طبلخانه فأرسل من هدم هذه الطبلخانه، وكان الذي عملها الأمير فخر الدين استادار الملك الصالح فأمر الشيخ بعزله فعزل» ويمضى ابن إياس «وأرسل الملك الصالح رسولا إلى الخليفة المستعصم بالله ببغداد، فسأله الخليفة هل سمعت الرسالة من الملك الصالح بنفسه؟ فقال الرسول : لا. ولكن نقلها عن السلطان الأمير فخر الدين. فقال الخليفة : نحن لا نقبل رسالة عن لسان شخص حكم بعزله ابن عبد السلام». وقد علم الشيخ أن الملك الصالح أيوب قد استعان ببعض ملوك الفرنجة وأعطاهم قلعة الشقيف ومدينة صيدا، فأنكر عليه ذلك وأفتى بضرورة ترك الدعاء له فى المساجد وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين بن الحاجب قاضى قضاة المالكية» فلما بلغ الملك الصالح قرارهما «أمر بإخراجهما من مصر، فخرجا، لكن السلطان الصالح ما لبث أن استدعاهما، فعادا، ولما دخل عليه الشيخ العز ابن عبد السلام قام وقبل يد الشيخ».

وعندما اصطدم الشيخ بعنفوان المماليك وبطغيانهم «أفتى بأن المماليك عبيد، ولا يجوز لهم حكم مصر، ولا تجب لهم طاعة، ولا حل إلا أن يباعوا ثم يعتقوا فيصبحوا أحراراً ويجوز لهم الحكم» وغضب المماليك غضبا شديدا «فركب نائب السلطنة وبيده سيف مسلول

وجاء إلى بيت القاضى فلما وقع بصره على الشيخ سقط السيف من يده ونزل عن فرسه وقبل يد الشيخ مسترحما لكن الشيخ قال : ما أرجع حتى أبيعكم فى السوق، وما رجع حتى جمع الأمراء كلهم ونادي عليهم فى السوق. فوكلوا عنهم جماعة في مشتراهم، وباعهم القاضى بأغلى الأثمان، وقبض ثمنهم وصرفه فى مصالح المسلمين، ثم أن القاضى عزل نفسه عقب ذلك، فتلطف به السلطان فى عودته للقضاء فلم يوافق على ذلك».

ولم يكن الشيخ عز الدين بن عبد السلام صارماً مع الحاكم وحده، ولا مع المماليك وحدهم، وإنما كان صارماً مع نفسه أيضاً، فقد أفتى يوماً فى أمر من الأمور، ثم أعاد النظر فى فتواه فوجد أنه قد أخطأ. فأمر «فنودى فى القاهرة.. من أفتى له ابن عبد السلام بكذا، فلا يعمل به، فإنه قد أخطأ فى ذلك».

وفى زمن السلطان المنصور، كان هولاكو يهدد حدود مصر بجيوشه مستعداً لغزوها ، فلجأ السلطان إلى الشيخ ابن عبدالسلام طالبا منه فتوى بجمع الأموال من الناس لدرء خطر التتار، وكانت فتوى الشيخ كما يلى «إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأغنياء الناس ما يستعان به على تجهيز العسكر لدفع العدو، على أن يسبق ذلك إلا يبقى فى

بيت المال شئ، وإلا يبقى لأى جندي سوى فرسه ورمحه وسيفه بحيث يتساوى فى ثروته مع العامة».

ويمضى ابن إياس قائلا «أن الشيخ ابن عبد السلام على الرغم من تشدده مع الحكام كان سمحاً وبشوشاً مع الناس وغير متزمت» ويقول «لقد قال عنه الشيخ قطب الدين ابن عبد السلام كان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة ويردد النوادر والأشعار ويسمح بالسماع والأغانى ويرخص به، وربما تواجد فى مجالس الغناء مستمعا ومنصتاً».

وإذ يرحل الشيخ العز بن عبد السلام تشيعه القاهرة بدموعها، لكن إبن إياس يقول «قيل فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام قال : ما استقر ملكى إلا الآن، وكان الشيخ عز الدين يزجره عن المظالم وينهاه عن ذلك ».

ورثاه أحد شعراء عصره قائلا:

سار عز الدين فى الناس سيراً

لم يسره سوى ابن عبد العزيز

عمنا حكمـــــه بعدل بسيط

شامل للورى ولفظ وجيـــز

وبالطبع فقد كان خليفته من تلاميذه وكان على شاكلته وهو

الشيخ تاج الدين بن بنت الأعز «وقد رفع أحد الأمراء دعوى أمامه بسبب بئر، وكان خصمه فيها الملك الظاهر بيبرس، فأرسل تاج الدين إلى الملك الظاهر يستدعيه، فنزل الظاهر من القلعة ووقف مع غريمه أمام القاضي ليحكم بينهما».

ولأن المسيرة طويلة. ولأن الإسلام المستنير كان متواجداً يخفت ثم يتألق، ثم يتعرض للمطاردة ثم يعود ليؤكد صحيح الإسلام، فإننا سنسرع بالقارئ عبر قصاصات من مواقف وأقوال لدعاة الديمقراطية والاستنارة من رجال الدين.

ونبدأ برفاعة الطهطاوى وبمعركته من أجل نشر التعليم الحديث «التعليم يجب أن يكون عاماً لجميع الناس يتمتع به الأغنياء والفقراء على السواء، فهو ضرورى لسائر الناس يحتاج إليه كل إنسان كإحتياجه إلى الخبز والماء»(١٤).

وهو يحرص على التأكيد على أهمية العلم الحديث «العالم هو من له معرفة فى العلوم العقلية التى فى جملتها علم الأحكام والسياسات، ويتعلم تعلماً تاماً عدة أمور، وإعتنائه زيادة على ذلك بنوع مخصوص، وكشفه كثيراً من الأشياء، وتجديده فوائد غير مسبوق فيها، فهذه أوصاف العالم، وليس كل مدرس عالماً»(١٥)، ثم «إن القول إنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة إرتكازاً على النهى عن

ذلك فى بعض الآثار ينبغى ألا يؤخذ على عمومه.. وأوروبا كلها تعلم البنات والبنين على قدم المساواة، وهذا هو السر فى أن بلادهم الآن هى أقوى البلدان»[١٦] ثم «وكل ما تطيقه النساء من العمل لهن مباشرته بأنفسهن. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وإفتعال الأقاويل.. إن العمل يصون المرأة عما لا يليق بها ويقربها من الفضيلة، فإن اليد الفارغة تسارع إلى الشر والقلب الفارغ يسارع إلى الإثم»[١٧].

وبعد هذه المساحة من الاستتارة ماذا عن الحرية «الحرية هى رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح، ولا معارض محظور، فحقوق جميع أهالى المملكة ترجع إلى الحرية. فكل فرد حر.. فلا يمنعه مانع إلا المانع المحدود بالشرع أو السياسة مما تستدعيه الأصول العادلة». ومن حقوق الحرية «ألا يكتم الإنسان رأيه فى شىء بشرط ألا يخل ما يقوله أو يكتبه بقوانين بلاده».. «والحرية قرينة المساواة فكلاهما ملازم للعدل والإحسان» ثم «والتسوية فى الحقوق ليست إلا عبارةعن تمكن الإنسان شرعاً من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعاً»[١٨].

والملك في فرنسا «ليس كولى النعم في مصر حاكماً مطلق التصرف، كلمته قانون لا راد لإرادته، وإنما هو حاكم بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الديوان (البرلمان)». بل هو يدعو إلى الجمهورية «ودعاة الملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم، وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية. والفرقة الأولى تحاول إعانة الملك، والأخرى تسعى إلى إضعافه وإعانة الرعية، ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة إلى ملك أصلا، ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا هو حكم الجمهورية»(١٩).

وإذا انتقلنا خطوة أخرى إلى الأمام أتينا إلى الشيخ جمال الدين الأفغاني ونستمع إليه صارخاً «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما يسد الرمق، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب من يأكلون ثمرة أتعابك»؟ و«لو أن كل واحد من الشعوب الإسلامية بصق بصقة واحدة، لو بصقوها معاً ستكون بحراً هائلاً يغرق الطغاة».

ثم يرفض أفكار المتأسلمين أعداء الحرية «لقد فسد الإسلام بالجهل بتعاليمه الصحيحة عبر الأجيال، ولابد من ثورة لإصلاحها

وإلا واجه المسلمون الهلاك. إن أخطاء القرون الماضية من عمر الإسلام ومساوئها إنما حصلت نتيجة سوء فهم جوهر العقيدة كما إحتواها القرآن والسنة» فإن «الآفة العظمى للمجتمعات الإسلامية هى إستبداد حكامها وتناحرهم» بل هو يؤكد «أن التعاليم الأصلية للإسلام تعطى للمسلمين حق الثورة على حكامهم الطغاة الفاسدين حتى لا يقوضوا بطغيانهم وفسادهم أركان المجتمع الإسلامى»(٢٠).

ثم نسرع لاهثين إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. والذى يمثل فكراً إسلامياً مستنيراً فى مجالات عديدة لعل من أهمها مجالات الحرية والديمقراطية. لكنه كان يستمد أفكاره هذه من وضعه كإبن من أبناء الطبقة الوسطى الريفية، ويمزج ذلك كله بفهم مستنير للشريعة الإسلامية وإنفتاح على ما أسماه «الأخلاق الاجتماعية الغربية والمصالح العامة» (٢١).

وقد كان محمد عبده يعتمد فى معركته هذه على الطبقة الوسطى «ويمنحها المرتبة المتقدمة فى إنجاز مهام التحول الديمقراطى، وذلك لسببين: الأول إنتماءه إلى الطبقة الوسطى الريفية، والثانى هو تصاعد وتميز دور مثقفى الطبقة الوسطى فى مصر فى زمنه لكونهم القلة الوحيدة التى كانت تتمتع بالاستقلال عن السلطة الحاكمة»(٢٢).

وكـعـادة الطبـقـة الوسطى تقلبت المواقف وفق توازنات القـوى، فعندما التهبت الثورة العرابية «طالب بحماس بالديمقراطية الكاملة، والحكم الدستورى والمجالس النيابية المنتخبة شعبياً. أما فى المرحلة التـالية «الاحـتـلال» فـقـد رفض إدخـال الدسـتـور والمجلس النيـابى مباشرة واقترح تأسيس مجالس محلية منتخبة فى كل قرية أو مدينة لها سلطة اتخاذ القرار بشأن المسائل الخاصة بالتعاملات فيما بين السكان. ورأى مـحمد عبده أن تجربة كـهذه ستمنح الشعب عادة مناقشة المسائل المشتركة فيما بينهم. وبالتوازى مع ذلك يأتى دور التـعليم الضــرورى لإعـداد نوعـيـة جـديدة من أعـضـاء المجـالس التشريعية، أما العامل الثالث فهو الصحافة التى سيتعين عليها إيجـاد رأى عـام يتـفـهـم الأفكار الدســتــورية ويدرك حـقـوقـه وواجباته»(٢٣).

وحول نظرية «السيادة» ورداً على الشيوخ الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة الحاكم باعتباره حائزاً للبيعة «قسم محمد عبده السيادة إلى قسمين: سيادة عليا يختص بها الله تعالى، وسيادة أقل درجة يختص بها الشعب وعليه ممارستها. ومن هذه السيادة تكتسب الأمة شرعية دورها كمصدر للسلطة والتشريع، ثم يكتسب الحاكم سلطته من الشعب»(٢٤).

لكن أهم معارك الشيخ محمد عبده «كانت رفضه بشكل حاسم أى سلطة دينية فى الإسلام، وتأكيده على ضرورة حماية الدين من مهام الحاكم الذى يجب ألا يكون من رجال الدين»[٢٥].

لقد خاض محمد عبده معركة ضارية ضد تسلط رجال الدين على عقول المسلمين «فلكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا من خلف»[٢٦] كذلك «ليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية» كما يدعو إلى التمييز بين «ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، ودعا الشعب إلى الاعتقاد بأن الحاكم وأن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم مصالحهم وشهواتهم. لأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل» [٢٧] ثم «لقد أخطأ المسلم فى فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والأنقياد لأوامرهم فألقى مقاليده إلى الحاكم ووكل إليه التصرف فى شئونه، ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعاً من إدارة وسياسة، ومن هنا انصرف المسلم عن النظر فى الأمور العامة جملة، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها اللهم إلا ما يمس شخصه منها. أما الحكام فقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم

الجهل ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم، وابتزاز الأموال لإنفاقها فى إرضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلاً، ولا يستشيرون كتاباً، ولا يتبعون سنة. حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والاقتداء بهم في الظلم، وما يتبع ذلك من الخصال التى ما فشت فى أمة إلا حل بها العذاب»(٢٨).

ثم هو يرفض اقتران الحكم بسلطة الدين قائلاً: «ومن الضلال القول بتوحيد الإسلام بين السلطتين المدنية والدينية فهذه الفكرة خطأ محض، ودخيلة على الإسلام. ومن الخطأ الزعم بأن السلطان هو مقرر الدين وواضع أحكامه ومنفذها. وأن المسلم مستعبد لسلطانه»(٢٩) ويخلص أحد الباحثين من هذه العبارة إلى القول «إن نفى دينية السلطة والتأكيد على مدنيتها قاد محمد عبده إلى التأكيد على مدنية المؤسسات فى المجتمع وإعطائها الطابع القومى الذى لا يفرق بين المواطنين بسبب معتقداتهم الدينية»(٣٠).

أما شكل الحكومة فهو عند محمد عبده «باق على الأصل من الإباحة والجواز، وهو اختيار يجب أن يلائم مصالحنا ويطابق منافعنا، ويثبت بيننا قواعد العدل وأركانه»(٣١).

لكننا وقبل أن نغادر ساحة محمد عبده يتعين أن نتوقف أمام

نص بالغ الأهمية «ليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية أو المؤسسة الدينية بوجه من الوجوه، ولم يعرف المسلمون فى عصر من العصور تلك السلطة الدينية»(٣٢) لأنه يرى ويؤكد «أن الإسلام لا يجعل للقاضى أو المفتى أو لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، ولا يسمح لواحد منهم أن يدَّعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو أن ينازعه فى طريقة نظره»(٣٣).

ثم نأتى إلى ذلك الشيخ الذى صارع الاستبداد والاستعباد، عبدالرحمن الكواكبى.

وقد ذاع صيت الكواكبى عبر كتابين «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. كلمات حق وصيحة فى واد، إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد». أما الثانى فهو «أم القرى» «وفى الكتاب الأول يركز الكواكبى الهجوم والانتقاد ضد الحكومات الاستبدادية. أما الكتاب الثانى فإنه يتركز على نقد سلبية الشعوب الإسلامية وحثها على النهوض لمقاومة الاستبداد، سواء استبداد الحكام أو استبداد رجال الدين»(٣٤).

ونحاول أن نتابع سريعاً صرخات مدوية ضد الاستبداد وضد تأسلم الحكام وأعوانهم. وإذ يسأل الكواكبى فى صدر كتابه الأول

عن الداء والدواء يجيب «يقول المادى: الداء القوة والدواء المقاومة، ويقول السياسى: الداء استعباد البرية والدواء استرداد الحرية، ويقول الحكيم: الداء القدرة على الاعتساف والدواء الاقتدار على الانصاف، ويقول الحقوقى: الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة. ويقول الربانى: الداء مشاركة الله فى الجبروت والدواء توحيد الله حقاً»، ثم هو يحاول أن يقدم تعريفا للاستبداد «الاستبداد صفة الحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء، بلا خشية من حساب».. «والحكومة ومن أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذى لا تسامح فيه. كما أنه ما من حكومة عادلة تأمن من المسئولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد. وبعد أن تتمكن من الاستبداد فإنها لا تتركه، إذ أنها تستعين فى ذلك بإحدى وسيلتين: جهالة الأمة، والجنود المنظمة، وهما أكبر مصائب الأمم وأهم معايب الإنسانية» (٣٥).

والمستبد «يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا إرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسده عن النطق بالحق والتداعى

لمطالبته، والمستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلها، والحق أبوالبشر والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم أخوتهم الراشدون إن أيقظوهم هبوا وأن دعوهم لبوا»(٣٦). ومواجهة المستبد تحتاج إلى العلم ولكن أى نوع من العلوم يحتاج الكواكبى «لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة. وإنما يتلهى بها المتهوسون. فإذا نبغ فيهم البعض ونالوا شهرة بين العوام فإنه لا يعدم وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره بمجرد سد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد. ولكن ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة، مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم، وسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم، المبسقة للشموس، المحرقة للرؤوس» ومثل هؤلاء العلماء إذا التصقوا بالشعب ودافعوا عن مصالحه يخشاهم المستبد «فالمستبد عاشق للخيانة والعلماء عوازله، المستبد سارق ومخادع والعلماء منبهون محذرون، وللمستبد أعمال ومصالح لا يفسدها عليه إلا العلماء»(٣٧). ثم هو يجرد الشيوخ من أية سلطة دينية أو مدنية «فلا يوجد فى الإسلام نفوذ دينى مطلقاً فى غير مسائل إقامة شعائر الدين»(٣٨).

وفى كتابه الثانى «أم القرى» يتخيل مؤتمراً للنهضة الإسلامية عقد فى مكة فى موسم الحج. ويسأل الكواكبى المؤتمرين ما هو سبب التخلف وتأتى أكثر الإجابات أهمية على لسان السيد الفراتى «إن أسباب التخلف عدة منها السياسة المطلقة وحرمان الأمة من حرية القول والعمل، وفقدان الأمن والأمل، وفقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة، وفقد قوة الرأى العام بالحجر والتفريق»(٣٩) ويقول المولى الرومى: «إن البلية هى فقدنا الحرية، فالحرية هى أعز شىء على الإنسان بعد حياته، وبفقدها تفقد الآمال وتعطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطل الشرائع وتختل القوانين، وهى تعنى أن يكون الإنسان حراً فى قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم، ومن فروعها: تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء.. ومنها حرية التعليم، وحرية الخطابة، والمطبوعات، وحرية المباحث العلمية، ومنها العدالة حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال، ومنها الأمن على الدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض والأمن على العلم واستثماره»(٤٠).

وكأن الكواكبى كان يقرأ مصيره إذ أكد أن «الحرية تنبع منها العدالة حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال» إذ تقول روايات إن الباب العالى العثمانى قد أرسل جواسيساً تعقبوا

الكواكبى، ولاحظ أحدهم أن الكواكبى أعتاد أن يبلل أصبعه من لسانه ليتمكن من قلب صفحات أى كتاب يقرأه بسهولة، فدس له كتاباً على أطراف صفحاته سم قاتل. وتكمل الروايات أن داهية الباب العالى أبوالهدى الصيادى أبدى ارتياحه لاغتيال الكواكبى قائلاً: «بالقراءة أتعبنا وبالقراءة قتلناه».

وتمتد أمواج الاستنارة لتأتى معها بإسلاميين يقاومون دعاة التأسلم الذى يساند الاستبداد وينفى الحرية، إسلاميين مستنيرين مثل على عبدالرازق وأحمد أمين وأمين الخولى وعشرات غيرهم.

لكننا نستأذن القارئ فى حديث موجز جداً عن موقف مستنير حديث.. هو موقف أسماه صاحبه موقف اليسار الإسلامى، فالدكتور حسن حنفى يرى أن التطبيق فى مجال الحرية والديمقراطية يكتسب الأولوية على الاجتهادات الفقهية. وهو يرى ضرورة «إظهار الإسلام الحقيقى القادر على تعبئة الشعب للدفاع عن حقوقه» وطالب «بالدفاع عن حرية التعبير عن الرأى والمشاركة فى صنع القرار من قبل مختلف الجماعات وضرورة الانحياز لديمقراطية الشعب بديلاً عن ديمقراطية النخبة الحاكمة أو أصحاب رأس المال» وهو يقبل بفكرة «الحاكمية لله» لكنه يؤكد أن «الله قد أوكل هذه الحاكمية للبشر جميعاً وليس لحاكم فرد أو نخبة حاكمة» (٤١).

فإذا أتينا إلى ساحة الشعر وجدنا معنا أمواجا دافقة من شعر يواجه طغيان الطغاة، هى أمواج بغير حصر سنختار منها مجرد نماذج.

بغال تسوس الأسد شر سياسة
ما ساس أسداً قبل ذاك بغال

وأيضا:

فجاءوا يسوسون الأنام سياسية
سدى لم تسسها قبل ذاك البهائم
فكم عالم قالوا له أنت جاهل
وكم جاهل صاحوا به أنت عالم
صحا كل شعب فاسترد حقوقه
فمتى يا مصر يصحو شعبك المتناوم

وإذ نذكر الحكم الذى أصدره الشيخ أبو خطوه بالتفريق بين الشيخ على يوسف (رئيس تحرير المؤيد) وبين ابنة الشيخ السادات بسبب عدم التكافؤ، ولأن الشيخ على يمتهن مهنة حقيرة هى مهنة الجورنالجية، وهى واقعه زلزلت الانتلجنسيا المصرية الناشئة فى مصر مطلع القرن العشرين، فلابد أن نذكر معها مطولة حافظ إبراهيم التى بدأها قائلا :

كســـــرت اليراع فلا تعجبـــي
وعــفت الكتـــابة لا تعــتــبي
فما أنت يا مصـــــــر دار الاديب
ولا أنـــــــت بالبلد الطيـــب
وكم فـيك يا مـصـر من مـضـحكات
كــمـــا قــال فــيك أبو الطيـب
إلى أن يقول :
وصـــــــحف تـطـن طـنين الـذبـاب
وأخـــرى تشن على الأقـــرب
وهـذا يلوذ بقـــصـــر الأمـــيـــر
ويـدعـــــــو إلى ظـلـه الأرحـب
وهـذا يـصــــيح مـع الصـــائحين
علي غــيــر قــصــد ولا مــأرب
ألفـنـا الخـــمـــول ويا لـيـــتـنا
ألفـنـا الخـــمـــول ولـم نكذب
فــيــا أمـــة ضــاق عن وصــفــهــا
جـنـان المفـــــوه والأخـطـب
تضـــيع الحــقــيــقــة مــا بيننا

ويصلى البـــرئ مـع المذنب

ويهـــضم فـــينا الإمـــام الحكيم

ويكرم فــينا الجـهـول الغـبي

علي الشــرق منى ســلام الودود

وإن طـأطـأ الرأس للمـــغـــرب

لقـد كـان خـصـبـا بجدب الزمـان

فــأجــدب فى الزمن المخـصب

ويصـرخ مطران خليل مطران في وجه الطغاه

شـــردوا أخـــيـــارها بحـــراً وبراً

واقـتلوا أحـرارها حـراً فـحـراً

إنما الصـالح يبقى صـالحـاً أخر

الدهـر ويبـــقي الشـــرشـــرا

كـــســـروا الأقـلام هـل تكسـيـرها

يمنـع الأيدي أن تنقض حـجـراً

اقطعـوا الأيدى هل تقطيـعـهـا

يمنـع الأعين أن تنظر شـــذرا

اطفـــئـــوا الأعين هـل اطفـــاؤها

يمنع الأنفـاس أن تصـعـد زفـرا

اخـمـدوا الأنفـاس هذا جـهـدكم

ويه منجـاتنا منكم فـشكـــرا

ولا ينسى حافظ إبراهيم ثأر الانتجلنسيا المصرية من الشيوخ المتأسلمين فيقول :

كم عـــالم مـــد العلوم حــبـــائلا

لوقـيـعـة وقطيـعـــــــة وفـراق

وفـقـيـه قـوم ظل يرصـد فـقـهـه

لمكيـدة أو مـــســتـحل طلاق

يمشى وقـد نصـبت عليـه عـمـامـة

كـــالبـــرج لكن فـوق تل نفـــاق

وكأن الشيخ محمد عبده يأبى هو أيضا إلا أن يثأر من شيوخ التأسلم ، فينشد وهو على فراش الموت.

ولست أبالى أن يقـــال مــحــمــد

أبَل أم اكـــتظت عليـــه المآتم

ولـكنـه دين أردت صـــــلاحــــه

أحـاذر أن تقضى عليه العمـائم

* * *

ونأتى إلى الزمان الحديث. لنجد الفارق واضحاً أيضاً، فبينما

كانت صيحات الديمقراطية والليبرالية تحاول أن تخترق جدار الحكم كانت جماعة الإخوان تقف وبتشدد ضد الديمقراطية وضد الحزبية ومع الملك فاروق، ونعود إلى الوثائق ونكتفى بها ففيها ما يكفى ويزيد.

..«فى الثامن عشر من ربيع الأول ١٣٥٧ هجرية تقدم وفد من الإخوان المسلمين بخطاب إلى جلالة مولانا الملك يلتمس العمل على إدماج الأحزاب المصرية فى هيئة واحدة ذات برنامج إصلاحى إنشائى يرتكز على قواعد الإسلام وتعاليمه، وحسبنا ما لقينا من بلاء الحزبية وعناء الانقسام السياسي»(٤٢).

ويواصل حسن البنا تحريضه على الأحزاب ففى الرسالة التى وجهها إلى «جلالة الملك المفدي» يقول «أن الحزبية السياسية التي تفشت بين الناس فرقت الكلمة ومزقت الوحدة، وأفسدت الأعمال وعطلت كل النواحي» ثم يقول «إن الضرورات التى أوجدت التعددية الحزبية قد انتهت ولم يبق منها شئ، فلا معنى إذن لبقاء هذه الأحزاب» ويقول «أن الأمم الغربية والتى ليس لها كتاب قيم ككتابنا، وليست لها شريعة مطهرة كشريعتنا قد أدركت بحكم مصلحتها الحيوية ضرر الخصومة فقضت عليها من أساسها وأستأصلتها من ديارها» (إنه يدعو الملك للاقتداء بالفاشية والنازية).

ثم يمضى فى صياغة متأسلمة معادية للديمقراطية «أن الإسلام يحرم هذه العصبية الحزبية»(٤٣)

بل أن حسن البنا يهدد الجميع قائلا «أن الإخوان سيجدون أنفسهم مضطرين إن لم تجد النصيحة وحدها ولم يفد الأدب والهدوء إلى أن يسلكوا كل سبيل إلى غايتهم ، وأن يناضلوا فى سبيل فكرتهم بكل سلاح»٠

وإذ يسيطر الثالوث المتشدد ضد الوفد الشيخ المراغي- على ماهر باشا- كامل البندارى باشا على مقدرات القصر ويلوحون للوفديين بعصا التشدد، وتتسرب شائعات عن احتمال وقف الدستور وحل جميع الأحزاب يسارع حسن البنا قائلا «إنه لو صح ما قيل عن وقف الدستور وحل جميع الأحزاب السياسية فهذا ما نادى به الإخوان المسلمون من زمن غير قصير، وقد سجلته مؤتمراتهم ومذكراتهم التى رفعوها إلي جلالة الملك الصالح. فإذا فكرت الجهات العليا في حل الأحزاب السياسية جميعا فإن هذا تفكير صحيح ومنطق سليم، وتحقيق لرغبات الأمة. أما عن الدستور فقد قال بعضهم أنه ثوب فضفاض ، ولكننا نقول إنه ثوب أجنبى دخيل علينا لا يتفق وذوقنا، ولا يناسب عاداتنا ولا تقاليدنا، ولا ينسجم مع ميولنا وأفكارنا» (٤٤).

وفى رسالة المؤتمر الخامس يقول الأستاذ حسن البنا «ويعتقد الإخوان أن الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم، وعطلت مصالحهم، وأتلفت أخلاقهم، ومزقت روابطهم، وكان لها في حياتهم العامة والخاصة أسوأ الأثر. ويعتقدون أيضاً أن النظام النيابى بل حتى البرلمانى فى غنى عن نظام الأحزاب بصورتها الحاضرة في مصر».

ثم يقول «أن الإخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الأحزاب، والعلاج الحاسم الناجع هو أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التى أوجدتها ، ولكل زمان دولة ورجال». ويدعو حسن البنا إلى «تغيير النظام البرلمانى من أساسه بنظام برلمانى يرفض التعددية، فالحائل دون النهضة، والمانع من تقدم الأمة، والمعول الذى يهدم كل خير فيها، ويحطم كل عنصر سليم هو شئ واحد فقط: الحزبية».

ويمضى حسن البنا رافضا للحزبية والتعددية «لا ندرى ما الذى يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد والمناضل هذه الشيع والطوائف من الناس التى تسمى نفسها الأحزاب السياسية. أن الأمر جد خطير، ولم يعد يحتمل أنصاف الحلول، ولا مناص بعد الآن من أن تحل هذه الأحزاب جميعا»(٤٥).

وإذ تهاجم جريدة المصرى (الوفدية) هذا التوجه اللاديمقراطى للإخوان رد عليها واحد من قادة الجماعة قائلا : «ألا تذكرون ألمانيا وقد أحيط بها، وضيق علهيا الخناق، ومزقت شر ممزق، ألا تذكرون إيطاليا وقد كانت مفككه تهددها الشيوعية؟ حدثونى بربكم من فك عن ألمانيا الأغلال؟ ومن أنقذها من هاوية الاضمحلال؟ واذكروا لى بربكم من أنقذ إيطاليا من خطر كان محيقا بها؟ هل كان ذلك من تعدد الأحزاب وكثرة البرامج وتنوع الأغراض؟ أم أن ذلك كان لوجود حزب واحد فى كل دولة منهما» (٤٦).

وهكذا فإن الموقف المتأسلم من الديمقراطية قاد أصحابه ليقفوا خاضعين للقصر الملكي، معادين للدستور، وللتعددية الحزبية ثم٠٠ مؤيدين للفاشية.

وعندما قام ضباط يوليو بحل الأحزاب جميعا فيما عدا الإخوان باعتبارهم جمعية وليست حزبا «توجه وفد من الجماعة لتهنئة القيادة بهذا القرار الحكيم» (٤٧).

ويمتد ذات الموقف إلى الزمان القريب جداً فالمرشد العام الثالث للجماعة الأستاذ عمر التلمسانى يقول «أن الأحزاب ما هى إلا لعبة استعمارية، كما أن الدستور فكرة استعمارية» ويقول «استقر رأيي أخيراً على أن فكرة قيام الدستور وإنشاء أحزاب أصلا كانت فكرة

استعمارية قصد منها الوقيعة بين أبناء الوطن الواحد»، (٤٨).

وإذا أتينا إلى الموقف من الحاكم فإننا نذكر موقف الإخوان من الملك فاروق وكيف خرجت مسيراتهم هاتفين باسمه كملك صالح وليبايعوه على كتاب الله وسنه رسوله، وكيف خرجت مظاهراتهم لترد على مظاهرات الوفديين الذين كانوا يهددون الملك «النحاس أو الثورة» هاتفه بدورها «الله مع الملك».

وتردد جماعة الإخوان أشد المواقف رجعية فيما يتعلق بالموقف من الحاكم، فأبو الأعلي المودودى الذى يعتبر مرجعاً فكرياً هاماً عند الإخوان ، وبالذات عند الأستاذ سيد قطب يقول أن المسلمين إذا انتخبوا حاكماً فهو بالنسبة لهم «ولى الأمر المطاع في حكمه، ولا يعصى له أمر ولا نهي. والأمير من حقه أن يرفض رأى الآخرين حتى ولو كانوا أغلبية أو إجماعاً. فالإسلام لا يجعل من كثرة الأصوات ميزانا للحق والباطل. فإن من الممكن فى نظر الإسلام أن يكون الرجل الفرد أصوب رأياً، وأحد بصرا من سائر أعضاء المجلس» (٤٩). وعلى ذات الدرب سارت جماعة الإخوان، فالأستاذ صالح عشماوى (عضو مكتب الارشاد على زمن المرشد الأول) يقول متباهيا «عند أول عهدى بعضوية مكتب الارشاد ثار البحث هل الشورى فى الإسلام ملزمة أم غير ملزمة؟ أى هل يتقيد فضيلة

المرشد العام برأى مكتب الارشاد أم إن المكتب هيئة استشارية له أن يأخذ برأيها أو أن يخالفه إن شاء؟ وكان رأى فضيلة المرشد أن الشورى غير ملزمة، وأن من حقه مخالفة رأى المكتب» (٥٠).

ويؤكد ذلك الاستاذ حسن البنا «يجب على الأخ أن يعد نفسه إعداداً تاماً ليلبى أمر القائد فى أى ناحية فإن الدعوة تتطلب منا أن تكون جنوداً طائعين بقيادة موحدة لنا عليها الاستماع للنصيحة، ولها علينا الطاعة كل الطاعة في المنشط والمكره» (٥١).

وعندما اختلف بعض أعضاء الجماعة مع الأستاذ حسن البنا حول بعض المسائل المالية أمر بهم فضربوا كما قال هو «علقة ساخنة» بحجة «أن المخالفين قد تلبسهم الشيطان، وأن من يشق عصا الجمع فاضربوه بحد السيف كائنا من كان». ويتأسف الأستاذ البنا لأن البعض من أعضاء الجماعة اعترضوا على أسلوب ضرب المخالفين قائلا «لقد تأثرنا إلى حد كبير بالنظم المائعة التى يسترونها بألفاظ الديمقراطية والحرية الشخصية »(٥٢).

وقد ظلت الجماعة تبرر لنفسها دوما أن استخدام القوة ضد مخالفيها فى الرأى هو أمر مسموح به، بل وضرورى «فما كانت القوة إلا كالدواء المر الذي تحمل عليه الإنسانية العابثة المتهالكة حملاً ليرد جماحها، ويكسر جبروتها وطغيانها، وهكذا كانت نظرية

السيف فى الإسلام. فلم يكن السيف فى يد المسلم إلا كالمشرط فى يد الجراح لحسم الداء الاجتماعي»(٥٣).

أما الشيخ عبدالرحمن الساعاتى (والد الأستاذ حسن البنا) فيكتب داعيا أعضاء الجماعة إلى إعداد الدواء اللازم لشفاء الأمة، «واعكفوا على إعداده فى صيدليتكم، ولتقم على اعطائه فرقة الإنقاذ منكم، فإذا الأمة أبت فأوثقوا يديها بالقيود، وأثقلوا ظهرها بالحديد، وجرعوها الدواء بالقوة، وإن وجدتم فى جسمها عضواً خبيثاً فاقطعوه، أو سرطانا خطيرا فأزيلوه، استعدوا يا جنود فكثير من أبناء هذا الشعب فى آذانهم وقر، وفي عيونهم قذي»(٥٤).

وإذ نعود إلي أبو الأعلى المودودي أستاذ التأسلم الحديث فهو يقول إن الديمقراطية كفر لأنها «تألية للإنسان وحاكمية الجماهير»(٥٥)

أما أيمن الظواهري (جماعة الجهاد) فقد كتب يقول «إعلم أن الديمقراطية والتي تعني حكم الشعب هي دين جديد يقوم علي تألية البشر باعطائهم حق التشريع غير مقيدين في تشريعهم بأية سلطة أخرى»، وهذا يعني أن الديمقراطية «دين وضعي كافر حق التشريع فيه للبشر، في مقابل الإسلام الذي حق التشريع فيه لله تعالي لا شريك له، والبشر المشرعون في الديمقراطية هم شركاء معبودون من

دون الله يعبدهم كل من يطيعهم فيما يشرعونه.. فأي كفر بعد هذا»(٥٦).

ثم يقول ونجمل أوجه الكفر في الديمقراطية فيما يلي : ١ - أن الديمقراطية تمنح حق التشريع للبشر كما في المادة السادسة والثمانين في الدستور المصري (يتولي مجلس الشعب سلطة التشريع) ولما كان التشريع حقاً خالصاً لله تعالي فالديمقراطية تنصب آلهة وأربابا وشركاء مع الله تعالي. ٢ - إن الإقرار بالديمقراطية هو إقرار بمنح حق التشريع لأحد من دون الله تعالي كما هو مقتضي الديمقراطية ومن أقر بهذا فهو كافر، لأنه اتخذ آلهة من دون الله، لأن التشريع حق خالص له تعالي، ومن شرع للبشر شيئا فقد نصب نفسه إلها لهم ومن أقر له بهذا فقد اتخذه إلها. ٣ - لما كانت الديمقراطية تقوم علي أساس مبدأ سيادة الأمة، ولما كانت السيادة سلطة لا يوجد أعلى منها.. فكل من أقر بسيادة الأمة كافر». ويمضي أيمن الظواهري قائلا : أما مبدأ المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات فإنه يعني عدة أمور كلها من الكفر (ومنها: اسقاط حد الردة لما يقرره الدستور من حرية الاعتقاد. واسقاط الجهاد في سبيل بالله، أي جهاد الكفار لما يقرره الدستور من حرية الاعتقاد. وإسقاط الجزية وشروط الذمة عن غير المسلمين

لما في هذا من تفريق بين المواطنين وإسقاط قوامة الرجال علي النساء.. فالمرأة في الديمقراطية لها حق تقلد المناصب والولايات كالرجل، لأن مقتضي المساواة هو جوهر الديمقراطية »[٥٧].

ثم يقول «هذه هي الديمقراطية وكفرها يا أخي، وأعضاء مجلس الشعب يا أخي هم الأرباب من دون الله تعالي والذين ينتخبونهم ليتخذونهم أربابا من دون الله تعالي وينصبونهم طواغيت معبودة من دون الله. وهذا كاف في تحريم الترشيح في المجالس النيابية الديمقراطية وفى تحريم المشاركة فى انتخابات هذه المجالس، وكل من شارك فيها عالما بحقيقة الديمقراطية فهو كافر مرتد خارج من ملة الإسلام.. فمن إدعى الإسلام إذا أتي بمكفر كالديمقراطية والاشتراكية فهو كافر مرتد، والذي يقول عن نفسه إنه مسلم ديمقراطي أو مسلم ينادي بالديمقراطية هو كمن يقول عن نفسه إنه مسلم يهودي أو مسلم نصراني» وكذلك «وإذا نصت دساتيرهم علي أن الدولة ديمقراطية ودينها الرسمي الإسلام فهو كمن قال «أشهد أن لا إله إلا الله وأن مسيلمة رسول الله»[٥٨].

إن هذه العبارات هي نموذج نموذجي للتلاعب بعملية التفسير النصي للآيات الكريمة وهي تأكيد- أن كنا لم نزل بحاجة إلى تأكيد- علي فساد أسلوب التفسير النصي. ويكفي في موضوع الولاية

والحاكمية أن الأستاذ الإمام محمد عبده قد فسر الأمر تفسيراً إسلامياً صحيحا إذ قال أن هناك سيادة عليا هي ولايته سبحانه وتعالي علي الكون، وسيادة أقل درجة وهي ولاية الشعب الذي يستمد منها الحاكم سلطته.

ثم أن أيمن الظواهري وبعد أن كان يتهم الحاكم بالكفر توسع فإتهم المحكومين أيضا، فأعضاء مجلس الشعب جميعا كفار، بل أن الناخبين جميعا كفار وكذلك بالطبع كل من سجل نفسه في سجل الناخبين وهم قرابة العشرين مليونا من المصريين.

والآن لعل الفارق قد إتضح بين مواقف إسلامية صحيحة من مسألة الديمقراطية وبين مواقف متأسلمة تساند الطغيان والظلم والعنف وترفض الديمقراطية.

ولعل هذا يمثل بذاته درساً للجميع فالشريعة الغراء يحاول البعض أن يتستر بها ويستخدمها مبرراً لارتكاب ما لا يجوز في حق المسلمين وفي حق الإسلام ذاته.

ونعود إلي ما بدأنا به: قول على بن ابى طالب: «القرآن لا ينطق وهو مكتوب وإنما ينطق به البشر، فهو حمال أوجه».

الهوامش

(١) أبوبكر الطرطوشي - سراج الملوك - الباب السابع - ص١٥٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع: الإمام أبو الحسن الماوردى - الأحكام السلطانية.

(٣) المعلم الثانى أبونصر الفارابى - آراء أهل المدينة الفاضلة - تقديم د.طه حبيشي - القاهرة «٢٠٠٢» ص١٨٩.

(٤) المرجع السابق - ص١٩١.

(٥) المرجع السابق - ص١٩٢.

(٦) ابن إياس- بدائع الزهور في وقائع الدهور- جـ١- ص٢٧٣.

(٧) المرجع السابق- ص ٢٧٣.

(٨) المرجع السابق- ص ٢٧٤.

(٩) المرجع السابق- ص ٣٦٤.

(١٠) المرجع السابق- ص ٣٠٢.

(١١) المرجع السابق- ص ٣٦٥.

(١٢) المرجع السابق- ص ٣١٨.

(١٣) المرجع السابق- ص ٣١٢.

(١٤) رفاعة الطهطاوى - مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية -ط٢ - القاهرة - ص٢٧٣.

(١٥) رفاعة الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - ط٢ - القاهرة - ص٣٠٥.

(١٦) رفاعة الطهطاوى - المرشد الأمين للبنات والبنين - ص٦٦.

(١٧) رفاعة الطهطاوى ـ تخليص الإبريز ـ المرجع السابق ـ ص٢٠١.

(١٨) رفاعة الطهطاوى ـ المرشد الأمين -المرجع السابق- ص١٢٧.

(١٩) رفاعة الطهطاوى ـ تخليص الإبريز ـ المرجع السابق ـ ص١٤٨.

(٢٠) محمد كامل ضاهر ـ الصراع بين التيارين الديني والعلماني ـ بيروت «١٩٩٤» ـ ص١٥٤ وهو يقدم اقتباسات بالغة الأهمية من كتابات الأفغاني في مجلة «العروة الوثقى».

(21) AlBert Hourani - Arabic Thought in The Libral age-London (1967) P 134

(٢٢) عبدالعاطى محمد أحمد ـ الفكر السياسى للإمام محمد عبده ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ ـ ص٤٧.

(٢٣) الديمقراطية ـ السنة الأولى ـ العدد الرابع «أكتوبر ٢٠٠١» دراسة د.وليد عبدالناصر، بعنوان الديمقراطية من منظور ثلاثة مفكرين إسلاميين ـ ص١٦.

(٢٤) عبدالعاطى محمد أحمد ـ المرجع السابق ـ ص١٨٩.

(٢٥) الديمقراطية – المرجع السابق ـ ص١٨.

(٢٦) الشيخ محمد عبده ـ الأعمال الكاملة ـ تحقيق د.محمد عمارة ـ ط٣ ـ ص٢٨٢.

(٢٧) محمد رشيد رضا ـ تاريخ الأستاذ الإمام ـ جـ١ ـ ص١١.

(٢٨) محمد عبده ـ الإسلام بين العلم والمدنية ـ ص٨٠.

(٢٩) محمد عبده ـ الأعمال الكاملة ـ المرجع السابق ـ جـ٢ ـ ص١٢٥.

(٣٠) محمد كامل ضاهر ـ المرجع السابق ـ ص١٨٣.

(٣١) محمد عبده ـ الأعمال الكاملة. المرجع السابق ـ ص٣٦٠.

(٣٢) المرجع السابق ـ ص١٢٥.

(٣٣) المرجع السابق - ص١٢٥.

(٣٤) د.عاطف العراقى - العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - بيروت «١٩٩٥» - ص١٦٦.

(٣٥) الرحالة ك (عبدالرحمن الكواكبى) - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - مطبعة الدستور العثمانى «١٣١٨هـ» - ص٨.

(٣٦) المرجع السابق - ص٢٣.

(٣٧) المرجع السابق - ص٣٢.

(٣٨) المرجع السابق - ص٣٩.

(٣٩) عبدالرحمن الكواكبى - أم القرى - طبعة محمود أفندى طاهر - «د.ت» - ص٤١.

(٤٠) المرجع السابق - ص٤٤.

(٤١) اليسار الإسلامي، العدد الأول -١٩٨٢ ، مقال د. حسن حنفي.

(٤٢) النذير - ٣٠ ربيع الأول (١٣٥٧ هجرية).

(٤٣) النذير- ٧ ربيع ثاني (١٣٥٧ هجرية).

(٤٤) النذير- ٩ اجمادي ثاني (١٣٥٧ هجرية).

(٤٥) حسن البنا، رسالة التعاليم.

(٤٦) النذير- ١١ ذي القعده ١٣٥٧ هجرية- مقال الأستاذ حلمي نور الدين.

(٤٧) لمزيد من التفاصيل راجع : السيد يوسف - الإخوان المسلمون- الجزء الخامس.

(٤٨) إبراهيم قاعود- عمر التلمساني شاهداً علي العصر- ص٢٦.

(٤٩) أبو الأعلي المودودي- نظرية الإسلام السياسية- ص٢٩.

(٥٠) الدعوة- ١٢-٢-١٩٥٢- مقال الأستاذ صالح عشماوي.

(٥١) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) -١٦-١٠-١٩٤٦- مقال الأستاذ حسن البنا.

(٥٢) حسن البنا- مذكرات الدعوة والداعية.

(٥٣) . النذير- رمضان ١٣٥٧ هجرية- مقال الأستاذ حسن البنا.

(٥٤) النذير- المحرم ١٣٥٧ هجرية- مقال الشيخ عبدالرحمن الساعاتي.

(٥٥) أبو الأعلي المودودي - الإسلام والمدنية الحديثة- ص٣٢.

(٥٦) أيمن الظواهري - الحصاد المر- الإخوان المسلمون في ستين عاما - من مطبوعات جماعة الجهاد- ص١٩.

(٥٧) المرجع السابق - ص٢١.

(٥٨) المرجع السابق. وقد وردت ذات الأفكار وربما بذات النصوص في:

- أيمن الظواهري - إشراف- نصح الأمة باجتناب فتوي الشيخ ابن باز بجواز دخول مجلس الأمة. مطبوعات جماعة الجهاد. النشرة الخامسة.

كم عالـــم مد العلوم حبائلا

لوقيعة وقطيعـــــة وفـــراق

وفقيه قوم ظل يرصد فقهـه

لمكيدة أو مستحل طـــلاق

يمشى وقد نصبت عليه عمامة

كالبرج لكن فوق تل نفاق

حافظ إبراهيم

قضية المرأة بين الإسلام والتأسلم

طوال أزمنة طويلة يتجدد هذا الموضوع، فالمرأة التى عانت دوما من التفريق والإنتقاص من حقوقها تكتشف- إذا ما حاولت أن تمعن الفكر فى الشريعة- أن كثيراً من الممارسات التى تمارس ضدها هى فى جوهر الأمر مماحكات تستند إلى رؤى متخلفة لا علاقة لها بالشرع ولا بالشريعة، وإنما هى وفقط تعبير عن موقف إستبدادى، مستند إلى موروث جاهلى.

ومنذ قرابة القرن والنصف تقدم رفاعة رافع الطهطاوى- الأب الروحى لحركة التنوير المصرية- فأرسى فهماً شرعياً صحيحاً يكفل للمرأة كامل حقوقها وينفى عن الإسلام أية شبهة لنفى هذه الحقوق.

وفى مطلع القرن العشرين تصدى قاسم أمين لذات القضية بكتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» فتصدى له متأسلمون من كل صنف محاولين إجهاض هذه الصيحة.

وبعدها بعامين أو ثلاث تفجرت القضية من جديد. وكانت محاولة جديدة نسيها المؤرخون وربما تناسوها فقد قام الاستاذ «على فهمى محمد» (هل سمع أحدكم بهذا الاسم؟ اعتقد لا.) بترجمة أو كما

قال هو «بتعريب» كتاب عنوانه «مركز المرأة فى الإسلام» والكتاب الصغير الحجم يليه ملحق أصغر حجماً ، عنوانه «المرأة والاقتصاد» والكتاب من تأليف فقيه هندى مسلم هو «السيد الأمير على الهندى- قاضى الهند سابقاً».

والمثير فى الأمر أن مترجم الكتاب أثبت على الغلاف بيتين من شعر لإسماعيل باشا صبرى.. الأمر الذى يوحى بأن المعركة كانت مشتعلة، وان التنويريين من أنصار حقوق المرأة كانوا يخوضونها كتابة وترجمة، نثراً وشعراً. أما الشعر فيقول:

يا من تزوج بإثنتيـــن ألا إتئـد
أوقعت نفسك ظالماً فى الهاوية
مـا العـدل بين الضـرتين بممكن
لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ولأن معركة تحرير المرأة كانت بحاجة إلى الاستناد إلى من يمكن أن يساندها فقد اتجه دعاة هذه المعركة إلى الاعتماد على مساندة الاستاذ الامام محمد عبده مفتى الديار المصرية، وإلى الأميرة نازلى. وهكذا فقد أهدى المترجم ترجمته «إلى صاحبة الدولة والعصمة البرنسيس نازلى هانم افندى فاضل» وقال فى الإهداء «مولاتى الأميرة. أجمع علماء الاخلاق والسواس والمتشرعون على

أن المرأة هى قوام الهيئة الاجتماعية، وعماد تقدم الأمم وتشييد الدول، وأن الأمة التى لا حياة اجتماعية لها لهى عدم فى الوجود بل هى شر من ذلك العدم». وقال «فى هذا الكتاب الذى وضعه أكبر فيلسوف إسلامى جمع بين تشريع المشرق وعمل المغرب ما يكفى العمل به أن ينهض بهذا العالم الإسلامى العاثر، ويعيد إليه سيرته الأولى، فسر ذلك المجد العظيم وعلة هذا الانحطاط العقيم هى المرأة»[1].

ثم مقدمة أخرى «من سعادة المفضال إسماعيل صبرى باشا وكيل الحقانية سابقا وشيخ الشعراء» يقول فيها «قرأت ما ترجمته عن السيد الأمير على ، فأعظمت الأصل والترجمة ووجدت ذلك المؤلف مشتملا على أكثر ما يحتاج المفكر فى شأن أمنا وأختنا وزوجتنا وبنتنا سيما فى الوقت الحاضر الذى فتح على المسلمين أبواب مسائل شتى يجب عليهم ألا يغلقوها، وأن يتذرعوا بحلها إلى سبب من أكبر أسباب الرقى الذى ننشده الآن جريا على سنة العصر الحاضر. فعليك بنقل مثل ذلك المؤلف إلى لغتنا العربية ليهتدى به عقلاؤنا ومفكرونا سواء السبيل».

.. كل هذا ونحن لم نزل على أبواب الكتيب الذى اصدره المفكر الإسلامى الهندى أمير على قاضى الهند سابقا.

فماذا عن الكتاب نفسه؟

الكتاب هو فى الأصل محاضرة ألقاها المؤلف فى جامعة لندن فى مطلع القرن العشرين ويبدأ القاضى محاضرته مهاجماً وليس مدافعاً فيقول «إن فى إنكلترا بل فى ممالك أوربا تقريباً سوء فهم كبير عن مركز المرأة فى الإسلام، فهم يظنون أن المرأة ليست مساوية للرجل إلا فى العالم المسيحى، ولا أريد أن أبحث فى صحة هذا الظن، فإن السيدات الغربيات المطالبات بحقوق النساء السياسية، اللواتى أعطف عليهن كثيراً، ذلك العطف الذى دام أربعين سنه ، أولئك السيدات هن أول من يدحضن هذه الدعوة على ما أرجح، أما رأيى الخاص، فهو أن المرأة فى نظر الشريعة الإسلامية السمحاء تحتل مكانة أرفع مما كان مخولا لها فى إنكلترا حتى بضع سنين. وإنها تحتل الآن مكانة أرفع مما لاقتها فى كثير من بلدان أوربا»(٢).

ويواصل الرجل هجومه «إن هناك ما يبرر سوء الفهم الذى أشرت اليه سابقاً، والذى هو موجود الآن فى أمم أوربا التى لا علاقة لها أو لها علاقة قليلة بأمم الإسلام. بل أن تلك الأمم الأوربية حينما تقضى عليها الأحوال بالاحتكاك بالأمم الإسلامية تكون علاقتها بها- وعلى الأكثر- خالية من التعاطف».

ويقول «وليس عدم إدراك مركز المرأة فى الإسلام إلا جزءاً من

ذلك الشعور العام الغير مبنى على التعاطف مع الأمم الإسلامية»(٣). ثم يبدأ بعد هذا الهجوم بحديث يفيض إستنارة بقدر ما يفيض بالمعرفة الحقة بمقاصد الشريعة إزاء المرأة. ويتحدث تفصيلا عن الحقوق التى يكفلها للمرأة من أربعة أوجه. كونها إبنة، كونها زوجة، كونها أماً، كونها أم الهيئة الاجتماعية التى هى منها».. ومع التفاصيل نطالع رؤية مستنيرة «إن الابنة المسلمة لا تعتمد أصالة على نظر والديها إلى مستقبلها، فإن الإسلام يضع على كاهلها حماية ذاتها من العبث. .وحينما تكون الفتاة غير بالغة سن الرشد تعيش مع أمها المطلقة ».

«وإذ تبلغ الفتاة سن الخامسة عشرة لا يمكن عقد قرانها إلا برضاها صراحة، ولا يمكن لأى إنسان آخر حتى الملك نفسه أن يرغمها على هذا الزواج»(٤). أما الزوجة فهى «لا تفقد شخصيتها الاعتبارية من جراء قرانها. بل تبقى متمتعه بعد زواجها بجميع حقوقها القانونية. ولها الحق فى أن تتصرف فى ثروتها كما تشاء وكما تريد، فإذا كانت تاجرة فإن ربحها لنفسها». وللمرأة « مطلق الحرية فى التصرف فى ثروتها ، ويحق لها أن تتعاقد وأن تتعاهد مع من تشاء من غير تدخل من زوجها أو أبيها أو وساطة أحد منهم» وللمرأة الحق «فى إشغال أى وظيفة ما أو القيام بعمل ما يقوم به

الرجل، وللمرأة الحق فى أن تكون مديرة جامعة، أو وصية على تركة... وقد وجد فى بطون التاريخ نسوة مؤمنات صالحات تمكن بفضل علومهن ومعارفهن من نيل وظائف القديسين والقديسات فصرن زعيمات للطرق الصوفية ورئيسات دينيات». ثم أن «أبا حنيفة الذى يتبعه معظم أهل السنة قد أفتى بحق المرأة فى الجلوس للقضاء»(٥).

وأخذ المؤلف فى إيراد أسماء لنساء شهيرات لمعن فى سماء التشريع والفقه والشعر والأدب.. «ففاطمة الزهراء كانت تحاضر فى ملأ من الرجال والنساء فى أمور الدين والدنيا. وهناك «فضل» الشاعرة الأكثر شهرة فى زمن الخليفة المتوكل، و«شهده» التى كانت خلال القرن السادس الهجرى أشهر المتحدثين فى التاريخ والآداب، و«زينب أم المؤيد» وكانت فى ذات الفترة من أشهر فقهاء عصرها وشهد لها فطاحل زمانها من العلماء بالنبوغ والفضل، وكانت تدرس الشريعة فى أشهر مساجد عصرها».

ويواصل الأمير على الحديث مطولاً عن نساء شهيرات أفسح لهن معاصرونهن ويسبب من الفضل والكفاءة والمعرفة وسعة الاطلاع.. مجالاً رحباً فى القضاء والتعليم والتشريع والفقه وهى أهم وظائف هذا العصر، بما يعنى أن التحيز ضد المرأة هو مجرد بدعة محدثة لم

تعرفها الشعوب الإسلامية إلا فى زمن الانحطاط.

ويمضى الكتاب متحدثاً عن تعدد الزوجات ويقول «اسمحوا لى أن أؤكد لكم كل التأكيد أن تعدد الزوجات ليس من الإسلام فى شئ، أو بعبارة أخرى إن علاقة هذه العادة بالإسلام ليست بمقدار علاقة كثير من العادات الضارة الشائكة فى الغرب منسوبة إلى المسيحية. فإن «عادة» (نلاحظ أنه يعتبرها مجرد عادة) تعدد الزوجات عرفها العالم من القدم كعادة تعدد الازواج.. إن الأمم القديمة كانت جميعها تمارس تعدد الزوجات بلا إستثناء ، وهذه العادة كانت شائعة عند الاثينيين والفرس والعبرانيين وعرب الجاهلية، بل أنها كانت شائعة فى العالم المسيحى رغم نهى جستنيان عنها»(٦).

ثم يمضى قائلا «لننظر إلى ما فعله النبى (صلعم) لتغيير الأفكار فى بنى أمته من أجل رفعها إلى مستوى أفضل. لقد حدد عدد الزوجات اللواتى يجوز للرجل التزوج منهن، واشترط فى ذلك شروطا شديدة هى فى الحقيقة بمثابة التحريم، وإنما صرح بتلك العادة من قبيل التسامح ومرونة الدين نظراً لشيوعها وكثرة إنتشارها قبل الإسلام.. ففى القرآن الكريم «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» وليس العدل الذى ذكر فى القرآن هو المساواة فى المسكن والمصرف كما يتبجح بذلك أنصار تلك الأفكار البالية العتيقة، وإنما هو يقضى

بالمساواة فى الحب والميل والاحترام. ولذلك ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل» ولقد تم العمل بهذا الرأى حتى القرن الثامن الميلادى حيث قرر علماء المعتزلة أنه ما دامت المساواة التامة فى الشعور مستيحلة التحقيق فإن آيات القرآن ظاهرة المعنى والمبنى على أنها تنهى عن تعدد الزوجات، وهذا الرأى أخذ الآن فى الانتشار. ففى الهند لا يكاد يوجد إثنان بالمائة متزوجين بأكثر من امرأة واحدة. وكذلك الحال فى إيران بينما يندر تعدد الزوجات فى تركيا».

ويمضى قائلاً «أن تقدم الفكر الإنسانى لابد وأن يزيل الضرورة التى دعت إلى تعدد الزوجات فتصبح هذه «العادة» المرذولة فى زوايا الإهمال، بل العدم»(٧).

وماذا عن الحجاب؟ يقول القاضى الأمير على الهندى «كانت هذه «العادة» (والحجاب أيضاً مجرد عادة فى نظره) جارية عند الأثينيين القدماء ثم إنتشرت بعد ذلك فى الدولة البيزنطية، وكان معمولاً بها وبتشدد تام فى روسيا حتى جاء بطرس الأكبر فمحا هذه العادة بوسائل صارمة، وعلى ذلك فمن الخطأ البين القول بأن النبى (صلعم) هو الذى أدخل هذه العادة فى الإسلام»(٨).

ثم ينتقل الكتاب بنا إلى موضوع الطلاق٠٠ ونقرأ «إن شروط الطلاق وأحواله تختلف كثيراً باختلاف المذاهب الفقهية، وتكاد هذه المذاهب- إذا ما دققنا النظر فيها- أن تجمع على أن الأمر بالطلاق مفوض للقاضى دون غيره، كذلك فإن الرسول (صلعم) قد أكد أن «أبغض الحلال عند الله الطلاق» ثم إن الإسلام قد جعل هذا الحق مقيداً بشروط واضحة، فإذا وقع شقاق بين الزوجين فعليهما اللجوء إلى التحكيم «فإن خفتم شقاقاً بينهما فأبعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً»٠ فإذا فشل الحكمان فى إصلاح ذات البين فعندئذ يحق للزوج أن يطلق امرأته، وذلك لا يكون عند الكثير من الفقهاء إلا بعد ثلاثة أشهر، وقد جعل هذا الوقت لكى يثوب أحدهما أو كلاهما إلى الصواب» ٠

ويمضى المؤلف مؤكداً «وهكذا يتضح أنه بالرغم من وجود بعض التقاليد الخرافية فإن مركز المرأة فى الإسلام واسع الحرية، ويمنح المرأة حقوقاً جمة»(٩)، بل أن الإسلام «أكسب المرأة حقوقاً لم يعترف بها لدى الأمم المتمدنة إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى، ويكفيه ذلك فخراً٠

* * *

وقد أعتاد المؤلفون والمترجمون أن يصدروا كتبهم ثم ينتظرون رأى القارئ ناقداً أو مادحاً. لكن المترجم إستشعر -فيما يبدو- إحتمال أن يشن عليه متأسلموا عصره حملات ضارية بسبب ما تضمنه الكتاب من رؤية مستنيرة.. فلجأ إلى الاستعانة بتقريظ يساند الكتاب طبعه فى نهاية طبعته الأولى.. لقد إستعان برتل من الشعراء والمفكرين ورجال الدين المستنيرين لعله يصد عن نفسه غائلة هجوم متأسلم كان متوقعاً، وقد وقع بالفعل.

ونبدأ بمساندة شعرية من مصطفى أفندى صادق الرافعى:

إن النسـاء هى الوجـود أمـا يرى
كل الرجـال لأجلهـا مـا يوجـد
هـى فـى القلـوب وكل شـئ راجـع
للقلب، فـهى لكل شئ مـورد

أما عن الكتاب وعن المؤلف فقد قال حافظ إبراهيم :

قـــد تجلى لنا الأمـــيـــر
فــذكــرنا به الإمـــام عليــا
قـــام يدعـــو إلى الهـــدى بكتـــاب
فيه أرضى النهى وأرضى النبيا

وكتب خليل مطران

إن النســـــاء إذا أقلن فـــإنـه

بنهوضـهن نـهوض نصف الناس

وقال حسن القاياتى :

زعـــمـــوا ديننا يعق النســــاء

زعـــمـــوا باطلا وقـــالوا هـراء

قـد أراهم لو إسـتـبـانوا «أمـيـر»

و«علـى» بأن فــــينا نســــاء

وقال أحمد نسيم :

يا قــاضى الهند الذى أبدى لنا

علمـــاً يرد الدين للأفـــهـــام

سـعـدت بك امـرأة عـرفت مكانـهـا

وأبنت منزلهـــا من الإســـلام.

أما العلامة الفقيه الحكيم رئيس الحكماء محمد مهدى التبريزى فقد كتب يقول متحدثاً عن المؤلف «جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً. كما أشكر همه المترجم لهذا السفر الجليل لإتحافه اللغة العربية الشريفة بهذه الهدية الثمينة».

أما طنطاوى الجوهرى (المدرس بدار العلوم ومدرس الفلسفة بالجامعة المصرية). فيقول : «أبان الكتاب جلال المرأة ورفعة قدرها

بيننا فعسى أن يقيض الله لها فى مصر من ينظم مدارسها ويصلح من شأنها».

وكتب الشيخ عبد العزيز البشرى عن الكتاب قائلا «أنه أبان فضل المرأة المسلمة وجليل خطرها ولطف مكانها فى حكم الإسلام»(١٠).

وقائمة المقرظين طويلة، لكنها تطرح علينا سؤالا صعباً، وربما شائكاً. لم لا نعيد طبع الكتاب الآن؟ ولكن أن طبعناه فهل سنجد من يتجاسر فيقرظه؟

* * *

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة كتاب يصدر فى الهند ويترجم فى القاهرة. ويحتفى به عدة أفراد وكفى. فقضية المرأة كانت ولم تزل وربما ستظل لآماد غير قصيرة أحد المشاكل الأكثر صعوبة، والأكثر غموضا فى ساحة الصراع بين نزعات التجديد والسلفية فى الفكر الإسلامى، أو أن شئنا الإيجاز بين الإسلام والتأسلم. وقد ظلت هكذا منذ صدر الإسلام وحتى الآن.

ذلك أن هذه القضية بالذات تختلط فيها قضايا عدة : التقاليد، الأعراف، التسلط الذكورى، الأخلاقيات، ثم ومع هذا كله، الارتباك فى فهم المقصود الدينى من مواقف محدده إزاء المرأة.

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى حقائق تاريخية متعلقة بحقيقة

وضع ودور المرأة في صدر الإسلام وعلاقتهما بتعاليم الإسلام الصحيحة. فالمرأة «ظلت فى صدر العصر الإسلامى تشارك بنصيب وافر فى الحياة العامة لمجتمعها، فقد ساهمت فى تأسيس الدولة الإسلامية، فاشتركت فى غزوات النبى (صلعم)، ولم يكن دورها مقصورا على سقاء العطشى من المقاتلين أو تمريض الجرحى، بل قاتلت قتالا حقيقيا فضربت بالسيف ورمت بالقوس، وعلى سبيل المثال فقد قاتلت أم عمارة فى معركة أحد فأبلت بلاءً حسنا وجرحت أثنى عشر جرحا»(١١).

كما شاركت المرأة بحماس فى المعارك السياسية التى نشبت بين علي ومعاوية «وكان بعض نساء المدينة يتميزن بالجرأة وقوة الشخصية ومنهن سكينة بنت الحسين، وقد روى إنها كنت تجئ يوم الجمعة فتقف إزاء ابن مطير إذا صعد المنبر، فإذا شتم عليا شتمته هى وجواريها فكان يأمر الحرس بضرب جواريها»(١٢).

أما عن التأسلم ومواقفه فإننا نتوقف أمام رؤى مثيرة للدهشة ليس فقط لأنها لا علاقة لها بصحيح الإسلام وإنما بسبب إغراقها في الترفع الذكوري علي المرأة فمثلا الدكتور أيمن الظواهرى (تنظيم الجهاد) يرى أن المناداة بحق المرأة فى المساواة مع الرجل كفر بواح. لأنها تعنى «اسقاط قوامة الرجال على النساء، قال تعالى:

«الرجال قوامون على النساء». (النساء ٣٤) فالمرأة فى الديمقراطية لها حق تقلد المناصب والولايات كالرجل، لأن هذا مقتضى المساواة التى هى جوهر الديمقراطية، أما قوامة الرجال على النساء فإنها تخالف المساواة»(١٣).

أما جماعة طالبان فقد حرمت المرأة من حق التعليم والعمل وأية حقوق تتعلق بآدميتها، حتى الموظفات فى الحكومة السابقة أمرن بالاستقرار فى بيوتهن ويتقاضين مرتباتهن بل وحرمت المرأة المريضة من اللجوء إلى طبيب، فإذا لم توجد امرأة تمارس الطب وكن نادرات في بلد حرم فيه التعليم والعمل علي المرأة، تركت المريضة دون علاج حتي الموت(١٤).

ونأتى بعد ذلك إلى الشيخ ابن باز لنقرأ ما يثير الدهشة، وربما هو أكثر من الدهشة «فالمرأة مأمورة أن تبقى منقبة حتى وهى فى بيتها حيث لا محارم، وذلك حتى لا تراها الملائكة فتكون فتنة»(١٥) ولولا أن صاحب هذا الاقتباس قد أورده منسوبا إلى مراجع الفتاوى السعودية المعتمدة لما صدقته.

ويؤكد الشيخ ابن باز فى هذه الفتاوى «إن الدعوة إلى نزول المرأة فى ميادين العمل التى تخص الرجال أمر خطير، ومن آثاره الاختلاط الذى يعتبر من أعظم وسائل الزنا» ثم «ومن البديهى أن المرأة إذا

نزلت إلى ميدان الرجال لابد أن تكلمهم ويكلموها والشيطان من وراء ذلك»[١٦] وحتى عندما اقترح البعض أن تعمل المرأة مدرسة فى المدارس الابتدائية رفض الشيخ بشده «فالولد قد يلتحق بالمدرسة الابتدائية وهو مراهق وقد يكون بالغاً»[١٧].

أما الشيخ العيثمين فقد شغل نفسه طويلا بمسألة شعر المرأة وتسريحته- وذلك برغم أخذه وبشدة بفكرة النقاب أى أن أحدا من غير المحارم لن يرى هذا الشعر «فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تقص شعرها بطريقة مشابهة لشعر المشركات، فمن تشبه بقوم فهو منهم» كما أن فضيلته يرى «أن فرق الشعر من جانب واحد خلاف للسنة، السنة أن يكون فرق الرأس من الوسط ويكون الشعر من الجانبين على السواء» ويمضى الشيخ العيثمين ليناقش أدق تفاصيل تسريحات الشعر «إذا كان الشعر مرفوعا إلي فوق ففيه نهى، أما إذا كان علي الرقبة علي شكل كعكة فإن هذا لا بأس به، إلا إذا كانت المرأة ستخرج إلى السوق، فإنه فى هذه الحالة يكون من التبرج، لأن الكعكة سيكون لها علامة من وراء النقاب» ثم «إن إزالة المرأة شعر الساقين حرام لأن إزالته تغيير لخلق الله»(لماذا يزيل الرجال شواربهم؟) أما «إزالة بعض شعر الحواجب فهو من كبائر الذنوب»[١٨].

أما خروج المرأة متطيبة بالعطر إلى السوق أو أى مكان آخر فهو حرام لما فى ذلك من إثارة الفتنة، فلا يجوز أن يشم رائحتها إلا من يحل لهـا»· وثوب المرأة يجب أن يمـتـد طويلا حـتى يغطى كـامل أقدامـها، بل لابد أن يجرجر على الأرض إلى درجة تسمح له وكأنه يمسح آثار أقدامها على الرمال ، فموقع أقدامها يثير مشاعر الرجال الجنسية»(١٩).

أما صـوت المرأة فـهو عـورة ولا يجوز «أن تنطق أمـام الرجل ولو بقراءة القرآن»·

قد سئل الشيخ العيثمين فى مسألة مـهمة «زوجة مريضة ويجب نقلها إلى المستشفى فوراً وزوجها غائب، فهل يجوز لشقيق زوجها أن يصحبها فى السيارة إلى المستشفى؟ وأفتى فضيلته بعدم جواز ذلك لأنه من الخلوة غير الشرعية» و«ماذا لو اضطرت المرأة إلى التحدث لرجل فى الطريق العام؟ يضرب كل منهما عشرون سوطا»(٢٠).

وخروج المرأة وحدها لم يزل حتى الآن مـحل خلاف كبير ونستمع إلى فتوى للدكتور عمر عبد الكافى يقول فيها «بنتك تروح جامـعة طنطا، ومراتك تدرس فى جامـعة أسيوط، وأختك رايحة مندوب عن الوزارة إلى بنى سـويف·· و هـذا كله حـرام، لا يجـوز للمـرأة أن تسافر لأكثر من ٨٠ كيلو متر بدون مـحرم وإلا صـارت آثمة ولعنتها

الملائكة حتى تعود»[٢١].

أما موضوع السفور والحجاب والنقاب فقد كان ولم يزل محل جدل شديد، واختلاف شديد. ونطالع كتاباً للدكتور محمود سلام زناتي ونقرأ «ثمة شواهد عديدة على احتفاظ العرب في صدر العصر الإسلامي بما جرت به عاداتهم قبل الإسلام فيما يتعلق بسفور النساء وحجابهن. وهناك شواهد لا حصر لها على سفور النساء واختلاطهن بالرجال في شتى المناسبات في هذا العصر»[٢٢].

وينقل د. زناتي عشرات الحكايات والروايات التي وردت في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني وكلها تتحدث عن علاقات عادية ومنطلقة بين رجال ونساء العصر الإسلامي الأول، يتحاورون ويتزاورون، ويشتبكون في جدل فكري أو شعري ، ونساء يظهرن جمالهن فينطلق الشعراء في وصفهن.. وبعد هذا يقول «والذي وجد في العصر الإسلامي هو أولا فرض الحجاب على نساء النبي خاصة، والاتجاه نحو فرض الحجاب على النساء العربيات تحت تأثير الحضارات المجاورة، وفي مقدمتها حضارة بلاد النهرين والحضارة الفارسية»[٢٣].

ومن الشواهد التي يوردها د. زناتي على أن الحجاب كان نظاماً خاصاً بنساء النبي «أن الرسول اصطفى لنفسه من نساء بني قريظة

ريحانة بنت عمر فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه، وكان الرسول (صلعم) قد عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك، فتركها»(٢٤).

ويلتقط د. زناتى خيطا هاماً من خيوط البحث في هذا الأمر«كان الطابع الغالب على العصر الأموى سفور النساء واختلاط الجنسين، ثم كان الطابع الغالب على العصر العباسى هو انتقاب النساء والفصل بين الجنسين» والسبب واضح عنده فالنفوذ الفارسى كان السائد فى العصر العباسى (والحجاب عادة فارسية). ويقول «وقد حمل لواء الدعوة للحجاب فى بداية العصر العباسى كاتب فارسى الأصل وكان حديث العهد بالإسلام هو ابن المقفع. وقد أدى ذلك بالجاحظ فى بداية القرن الثالث الهجرى إلى وضع رسالة فى هذا الموضوع يقول فيها «ولم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى خاصة، ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً فى الجاهلية، ولا حراماً فى الإسلام. إن الحجاب أمر أفرط فيه المتعدون حدود الغيرة فصار عندهم كالحق الواجب»(٢٥).

لكن دعاة الاستنارة ظلوا ومنذ عهد الجاحظ وما قبله ثم ما بعده وحتى الآن يخوضون معارك تحرير المرأة وفق القواعد الإسلامية الصحيحة.

والمواقف عديدة، والكتابات أكثر سنختار منها بعضا مما لم يطرقه الباحثون. فلن نعود إلى ما اعتاد الناس على قراءته مثل كتابى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» لقاسم أمين ، فالاقتباسات منهما تكاد أن تكون محفوظة عن ظهر قلب للباحث فى هذا الأمر.

لكننا سنتمهل قليلا عند الأستاذ الإمام محمد عبده وفى كتابات له ليست متداولة كثيرا ونقرأ «الرجل والمرأة متماثلان فى الذات والشعور، واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيدا»(٢٦) ثم «لقد كانوا لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها لا يرون للنساء شأنا فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها حتى علمهم الوحى ذلك، ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم. وإن ما جاء بالقرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية»(٢٧) وعن تعدد الزوجات يقول الأستاذ الإمام «إن تعدد الزوجات ليس خاصية أصيلة من خصائص الشرق،

وإن هذا النظام ارتبطت نشأته بزيادة أعداد النساء عن الرجال فى المجتمعات الحربية القديمة ومنها المجتمع العربى الجاهلى، والإسلام لم يقر عادات الجاهلية من هذا النظام، فما كان عند العرب عادة ليس صحيحاً إن الإسلام جعله ديناً، فقد عمد الإسلام إلى إصلاح هذا النظام بإلغائه تدريجياً، حيث كان مباحاً بلا حدود، فوقف به الإسلام عند حد الأربعة وضيقه باشتراط العدل، وهو أمر نادر الحدوث لا يصلح أن يتخذ قاعدة، مما يعنى الاكتفاء بواحدة إلا للضرورة القصوى. وإذا كان التعدد فى صدر الإسلام مفيداً فأنه يجلب اليوم المضار للأسرة وللأمة، وإذا ترتب على شئ مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة. ومن ثم فإن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل، وأما جواز إبطال هذه العادة فلا ريب فيه». (ونلاحظ إنه يعتبر أن تعدد الزوجات هو مجرد عادة). ومن هنا «فإن من حق الحاكم والعالم أن يمنع تعدد الزوجات باستثناء ما إذا كانت الزوجة عقيماً ويريد الزوج الإنجاب، فللقاضى أن يتحقق من قيام هذه الضرورة ويبيح للزوج الزواج بأخرى»(٢٨).

وعن الطلاق يستند الأستاذ الإمام إلى قول على بن أبى طالب «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش» ثم يستند إلى ما

جـاء فى حـواشى ابن عـابدين الذى قـال «إن الأصل فى الطلاق الحظر، بمعنى إنه محظور إلا لعارض يبيحه، فإذا كان بلا سبب يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفر بالنعمة وإيذاء للمرأة وأهلها وأولادها» ومن هنا يقرر الأستاذ الإمام قاعدة مهمة «إن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة» ولا يأخذ الأستاذ الإمام بطلاق الغاضب، مستنداً إلى قول على ابن أبى طالب «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة» ويدعو الأستاذ الإمام إلى عدم الاعتداد بالطلاق إلا إذا تم بحضور شهود تماما كما فى الزواج »(٢٩).

ثم نأتى إلى مفكر إسلامى آخر ربما لم يسمع به الكثيرون هو الشيخ الطاهر الحداد أحد فقهاء جامعة الزيتونة الإسلامية فى تونس. ونطالع كتابه الممتع «إمرأتنا فى الشريعة والمجتمع» ويبدأ الشيخ الحداد كتابه بالهجوم على من اسماهم بالرجال المتشددين فى إنكار حقوق المرأة. ويقول «بدلاً من هذا العناد يجب علينا أن نتعاون معاً على إنقاذ حياتنا بوضع أصول كاملة لنهوض المرأة الذى هو نهوضنا جميعا، وبذلك نكون قد طهرنا الماء الصالح للحياة قبل أن يتحول إلى عفونة تهدمها وتبيدها»(٣٠) والشيخ الحداد عالم فقيه ينظر إلى الأمر من زاوية متعمقة «فالقرآن الكريم أراد أن يكون

نافذاً في يومه، وفاعلا أثره في النفوس والدولة التي يؤسسها، ومن ذلك أن آياته كانت تنتظر الحوادث لتنزل عليها، لا أن يفترضها افتراضاً تعجيلاً لتقرير أحكامه، وكان من ذلك أن القرآن لم يبوب لأحكامه بحسب الموضوع طبقا لأصل النظرية في تدوين المبادئ والكتب، وبذلك كانت شريعته نتيجة لما في الحياة من تطور. أن الحياة طويلة العمر جداً، وبقدر ما فيها من الطول بقدر ما فيها من الأطوار المعبرة عن جوهر معناها وأخص ميزاتها ذلك أن عشرين عاماً من حياة النبي في تأسيس الإسلام أوجبت نسخ نصوص بنصوص، وأحكام بأحكام اعتباراً لهذه السنة الأزلية ، فكيف بنا إذا وقفنا بالإسلام الخالد أمام الأجيال والقرون المتعاقبة بلا انقطاع ونحن لا نتبدل ولا نتغير؟»(٣١).

ثم «يجب أن نفرق بين ما جاء الإسلام من أجله وهو جوهره ومعناه فيبقى خالداً بخلوده كعقيدة الوحيد ومكارم الأخلاق وإقامة العدل والمساواة بين الناس، وبين ما وجده من الأحوال العارضة للبشرية وللنفسيات الراسخة في الجاهلية قبله دون أن تكون غرضاً من أغراضه، فما يضع لها من الأحكام إقراراً لها أو تعديلاً فيها يبقى ما بقيت هذه الأحوال العارضة، فإن ذهبت ذهبت أحكامها معها، وليس في ذهابها جميعاً ما يغير الإسلام، وذلك كمسائل العبيد

والإماء وتعدد الزوجات وغيرها، مما لا يمكن اعتباره كجزء من الأصول»(٣٢).

ولكي نفرق بين ما كان من ذات الإسلام وجوهره وما ليس كذلك نسأل.. هل جاء الإسلام لأجل كذا أم لا؟ «فنقول مثلا هل جاء الإسلام لتزكية نفوس المجرمين وتطهيرها من روح الشر والإجرام أم جاء ليقتص منهم بإقامة الحد تنكيلا بهم؟ وهل جاء الإسلام بالمساواة بين عباد الله بما يقدمون من عمل، أو أنه جاء ليجعل المرأة بأنوثتها أدنى حقاً في الحياة من الرجل بذكورته؟» ويقول كان الرسول يتباهى «أنا أبو البنات». ويمضي الشيخ الحداد قائلا «إن الإسلام قاوم تشاؤم العرب من البنات وكراهتهن فجاء القرآن الكريم «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون» وهو يعزز قوله بقول الإمام أبو حنيفة بحق المرأة في تولي منصب القضاء»(٣٣).

ويقول «إنما الإسلام دين الواقع ويتطور بتطوره وذلك سر خلوده، وليس في نصوص القرآن ما يمنع المرأة من تولي أي عمل في الدولة أو المجتمع مهما كان هذا العمل عظيما، وهذا يدل على أن هذه المسألة ليست من جوهر القرآن». ويمضي الشيخ الحداد «أن

الإسلام أعطى المرأة حق التكسب وأهلية التملك الشخصى «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» وإذ أعطى للمرأة هذا الحق فلابد أنه أعطاها أدوات ووسائل تمكنها من ممارسته دون غبن لها، فلها طبعا حق السعى للتكسب وحق ممارستها للنشاط الذى تتكسب منه، وبهذا فإن احتجاز المرأة فى البيت وفرض الحصار عليها يتناقض مع حقها الذى كفله لها القرآن.

ونمضى مع الشيخ الحداد لنقرأ «إن الواجب يدعونا اليوم أكثر من أى وقت مضى إلى النهوض بالمرأة من كبوتها الآتية من ظلمات القرون الغابرة ، وإن نعتبرها عضوا حياً وشريكاً مساوياً فى الحياة، وإن نزيح عن طريقها حكم الإكراه والجبر الذى نأخذها به اليوم»(٣٤).

ثم يختم الشيخ الحداد كتابه قائلا «هذا هو صوتى أرفعه عاليا بقدر ما لى من قوة العقيدة وراحة الضمير، ولو أمكننى أكثر من هذا لفعلت، ويا ليتنى كنت أستطيع أن أصرخ كالبركان الهائل عسى أن أزعج برعدى جميع الذين مازالوا يغطون فى نومهم غارقين فى أحلامهم الضالة التى جعلتنا فى هذا العام مثالا لسخرية القدر»(٣٥)

ونأتى إلى فقيه آخر لم يلتفت إليه الكثيرون هو الشيخ محمد المهدى الحجوى- ونقرأ معاً بعضا مما كتب «لم يفرق الشرع بين

المرأة والرجل فى الحق السياسى فإن النبى (صلعم) لما انتصب للبيعة مد يده للرجال والنساء على السواء وفى ذلك تأسيس لحقها فى البيعة، وما يقاس عليها من الانتخاب فالبيعة نوع من الانتخاب»(٣٦)

وللمرأة الحق فى أن تكون نائبة «ففى ذلك لها قدوة بالمجتهدات العالمات الصحابيات والتابعات. والنظر فى الدين والشرع مأخوذ بلا ريب عنهن، ولهن أنظار معرفة فيه، وليس من الحق أن تتطور الحالة الاجتماعية والسياسية عند المسلمين من انتخاب وتصويت وشورى بناء على بيعه النبى (صلعم) وغير ذلك مما أتخذ أساساً لتكييف الحالة الاجتماعية والسياسية بكيفية جديدة مع حفظها لأصول التشريع، ليس من الحق أن يتم ذلك مع قصره على الرجل دون المرأة، بل الحق أن يكون ذلك فى حقهما معا»(٣٧) ثم يقول «فإذا ولجت المرأة البرلمان ربما انتخبت للوزارة أو رئيسة للجمهورية، وهذا على فرض وقوعه فإنه لا يبلغ بها درجة الخلافة الممنوعة هى منها، لأن رياسة الجمهورية ورياسة الوزارة ليست خلافه عامة»(٣٨) ثم «ولا مانع للمرأة من ممارسة مهنة الطب والهندسة والتدريس ونشر العلم بالإقراء والافتاء لوقوع جل ذلك من النساء، وانتصابهن له بالصدر الأول وبعده من الإسلام، ووقع الإجماع السكوتى عليه من سائر

الأجيال، بل ووقع بعضه على عهد النبى(صلعم)، فقد رأينا أزواج النبى يفتين ويدرسن العلم، ويروى عنهن ، وكانت عائشة تفتى فى الشريعة والطب ويرجع إليها فى اللغة و الأدب، وكتب الحديث والتفسير مملوءة بالرواية عنها وعن غيرها من أزواج النبى ومن الصحابيات والتابعات»[٣٩] ثم «وقد قال أبو حنيفة: يجوز للمرأة أن تكون قاضياً فى الأموال، وقال الطبرى يجوز أن تكون المرأة حاكماً على الإطلاق فى كل شئ، وقد وردت الأخبار بأن عمر بن الخطاب كان يقدم السفاء بنت عبدالله فى الرأى، ولربما أولاها شيئاً من أمر السوق، وبأن سمراء بنت نهيك الأسدية أدركت الرسول وكانت تمر فى الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر» ثم يؤكد أن«المساواة حق المرأة، وهو حق شرعى أسسه لها الإسلام فى أول أمره ووجهها نحوه، وإن كانت أهملته فى فترة من تاريخها لعدم الداعى الضرورى لممارسته، أو لكون الرجل غلبها على ذلك ومنعها منه، أو بسبب تزمت علماء الدين وتشديدهم فى رفض حق المرأة وقصرها على البيت فإن ذلك لا يسقط حقها هذا».

ويبقى بعد ذلك أن الكتاب يحمل تقريظاً من الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الحين والتقريظ يقول «والمرأة المسلمة ممنونة لكم حيث أنكم أول من قدم لها بيان حقوقها

وواجباتها بين دفتى رسالة، بارك الله فيكم وأكثر من أمثالكم فى العالم الإسلامى المفتقر لأضرابكم وحياكم وبياكم»٠

ويبقى أن نزين هذه الكتابة ببعض من شعر لشعراء فهموا حقيقة الإسلام فدافعوا عن المرأة٠

حافظ إبراهيم يقول :

ليست نساؤكم حلى وجواهرا
خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى
فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها
ودلاهن على الجمود بواقى

أما أحمد شوقى فيصيح :

ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا
هل للنساء بمصر من أنصار
يا معشر الكتاب أين بلاؤكم
أين البيان وصائب الأفكار
أيهمكم عبث وليس يهمكم
بنيان أخلاق بغير جدار

ويقول فى قصيدة أخرى:

هـذا رســــــــــول الـلـه لـم

ينـقـص حــــقـــــوق المـؤمـنـات

الـعـلـم كـــــان شـــــريعــــة

لنســـائه المتـــفــقـــهــــات

رضـن التـــجـــارة والســيـــاســة

والـشــــئـــــون الآخــــــريات

مــــصــــر تجــــدد مــــجـــــدها

بنســـــائهــــا المتـــجــــددات

الـنـافـــــرات مـن الجــــمـــــود

كـــــأنه شـــــبـح المـمــــات

الهوامش

١ - السيد الأمير على الهندى- مركز المرأة فى الإسلام- تعريب على فهمى محمد، القاهرة، ص٣٠

٢ - المرجع السابق - ص٨٠

٣ - المرجع السابق - ص ٧٠

٤ - المرجع السابق - ص١٠٠

٥ - المرجع السابق - ص ١٦٠

٦ - المرجع السابق - ص ١٩٠

٧ - المرجع السابق - ص٢٢٠

٨ - المرجع السابق - ص٢٥٠

٩ - المرجع السابق - ص٣١٠

١٠ - المرجع السابق - ص١٦٩٠

١١ - د٠ محمود سلام زناتى- نظم العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام- ص٢٦٣٠

١٢- المرجع السابق - ص٢٦٥٠

١٣ - أيمن الظواهرى - الحصاد المر، الإخوان المسلمون فى ستين عاماً- المرجع السابق- ص٢١٠

١٤ - لمزيد من التفاصيل راجع: عبد الحليم غزالى - طالبان : العمائم والمدافع والأفيون- القاهرة- (٢٠٠٠)

١٥ - نبيل محمد رشوان- دور السعوديين فى إفساد دين المسلمين -ص١٠٠

١٦- المرجع السابق - ص١٣٢٠

١٧- المرجع السابق - ص ١٣٥٠

١٨- المرجع السابق- ص ١٠٦.
١٩ - المرجع السابق - ص١١٠.
٢٠ - المرجع السابق - ص١٢٠.
٢١- إبراهيم عيسى - عمائم وخناجر- عن كارثة التطرف فى مصر- ص١٠٥.
٢٢ - د. محمود سلام زناتي - المرجع السابق- ص ٢٦٤.
٢٣ - المرجع السابق -ص ٢٦٥.
٢٤ - المرجع السابق - ص٢٦٧.
٢٥ - المرجع السابق ص٢٦٨.
٢٦ - الإمام محمد عبده- الأعمال الكاملة- المجلد الخامس- ص٢٠٨.
٢٧ - المرجع السابق- المجلد الرابع- ص ٦٥٤.
٢٨ - المرجع السابق- المجلد الأول - ص ١٧٤.
٢٩- المرجع السابق- المجلد الثاني- ص ١٧٤.
٣٠-الشيخ الطاهر الحداد- امرأتنا فى الشريعة والمجتمع- تونس- (١٩٢٩)-ص١٥.
٣١ - المرجع السابق - ص٢٠.
٣٢- المرجع السابق - ص٢٠.
٣٣ - المرجع السابق- ص٢٢.
٣٤ - المرجع السابق - ص١١٢.
٣٥ - المرجع السابق - ص١٧٠.
٣٦ - الشيخ محمد المهدى الحجوى - المرأة بين الشرع والقانون (١٣٦٥ هجرية) - ص٣٢.
٣٧ - المرجع السابق - ص٣٤.
٣٨ - المرجع السابق - ص٣٥.
٣٩ - المرجع السابق - ص ٣٥.

مضت الخلافة والإمام فهل مضى

ما كان بين الله والعباد

والله ما نسي الشهادة حاضر

في المسلمين ولا تردد شادي

والصوم باق والصلاة مقامة

والحج ينشط في عناق الحادي

أحمد شوقي

أوهام الخلافة

- عن الفهم اللغوى

وكالعادة نبدأ بمحاولة للفهم اللغوي لكلمة الخلافة.

- الخليفة هو السلطان الأعظم وقد يؤنث.

أنشد الفراء:

أبوك خليفة ولدته أخــرى

وأنت خليفة ذاك الكمال

وجمعها خلائف مثل كريمة أو كرائم، أو خلفاء كظريف وظرفاء .

ويقال خلف فلان فلاناً أى جاء بعده ومنه قوله تعالي «اخلفني في قومي».(١)

- وأيضاً.. «يقال جاء خلافة أي جاء بعده وفي التنزيل العزيز «وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا»

وأيضا «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات» والخلافة هي الإمامة. والخليفة هو المستخلف والسلطان الأعظم والهاء للمبالغه»(٢)

- وفي تعريف آخر نقرأ «التعريف اللغوي للخلافة يأتي من :

الخلف عكس قُدام. وخَلَفَه أي صار خلفه، وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته. ويقال خلفه في قومه خلافة. أما التعريف الإصطلاحي : «هي رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في كل الدنيا». جاء في القرآن الكريم «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»(البقرة ٣٠). و«إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح» (الأعراف ٦٩). وأيضا «هو الذى جعلكم خلائف في الأرض» (فاطر ٣٩).(٣)

– عن التعريف السياسي

وثمة تعريفات عدة تواترت لأسباب سياسية، وصلت في بعض الأحيان إلى تأليه الخليفة «فإحكم فأنت الواحد القهار». أو القول بأنه «ظل الله في الأرض» أو «وارث النبوة» إلخ.. وسوف نأتي علي ذكر ذلك أو بعضاً منه في المتن لكننا سنكتفي الآن بتعريف واحد محذرين من البداية أن أصحابه هم من أكثر المتشددين تشددا في القول بالخلافة «الخلافة هي رئاسة عامة للمسلمين جميعاً في الدنيا لإقامة أحكام الشرع الإسلامي، وحمل الدعوة الإسلامية للعالم. وهي عينها الإمامة. فالإمامة والخلافة بمعني واحد. ولا يجب أن يلتزم هذا اللفظ أي الإمامة أو الخلافة وإنما يلتزم مدلوله». إن إقامة خليفة فرض علي المسلمين كافة فى جميع أقطار الدنيا، والقيام به كأي فرض من الفروض التي فرضها الله علي المسلمين وهو أمر

محتم لا تخيير فيه، ولا هوادة في شأنه، والتقصير فيه معصية من أكبر المعاصي يعذب الله عليها أشد العذاب. ولا يجوز أن يكون في الدنيا إلا خليفة واحداً لما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص في قوله إنه سمع رسول الله(صلعم) يقول «ومن بايع إماما فأعطاه صفقه يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فأضربوا عنق الآخر».

- عن العرف والأوضاع الاجتماعية

عندما أتت الرسالة المحمدية أتت لتجد مجتمعاً لم يعرف الدولة ولا نظمها، ولا النظام العام فعندما أتى أبرهة بجيشة لغزو مكه لم يجد سكانها من ينظم لهم دفاعهم عنها إذ أنهم فروا بإبلهم إلى الشعاب تاركين البيت لرب يحميه. كان هناك فقط العرف والتقاليد التي أعطت للقبيلة قيمتها كمحور للولاء، والتي صبغت الحياة الجرداء للصحراء بعديد من القيم، الشرف، الكرم، الثأر.. إلخ، وكان هناك حلف الفضول «الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة، والفضيل بن الحارث الذين توافقوا معا على فرض نوع من القواعد والضوابط للتعامل بين السكان وبعضهم البعض، وبينهم وبين الغرباء. ولم تأت هذه القيم من فراغ، ولا من مجرد البيئة الصحراوية وإنما عبر يقين بوجود إله واحد ينظم هذا الكون هو «الملتجأ إليه فى جميع الأمور..

وكان من نتيجة هذا الاعتقاد أن سجل للعقل الإنساني إستقامته فى عهد باكر»(٥).

وإذ نتجول في أروقة الشعر الجاهلي القديم فإننا نجد هذه الفكرة متألقة تماما..

قال أبو قيس بن الأسلت :

أجــرت مــخلداً ودفــعـــــت عنه
وعند الله صــالـــح مــا أتيت

وذو الأصبع العدواني:

إن الذي يقـبض الدنيـا ويبـسطهـا
إن أغناك فـــســوف يغنيني

الله يعلمكم واللــــــه يعلمنـــي
والله يجــزيكم عني ويجــزيني

وزهير بن أبي سلمى:

فـلا تكتـمن الله مـا في نفـوسكم
ليـخـفي، ومـهـمـا يكتم الله يعلم

وقال الذبياني:

حلفت فلم أترك لنفـــسك ريبــــة
ولكن وراء الله للنفس مــذهـب

أما تلك الأصنام التي سمعنا عنها مثل اللات والعزى فقد كانت مجرد وسائط للتقرب إلى الله.. إذ يقول أوس بن حجر.

وباللات والعـزى ومن دان دينهـا

وبالله إن الله منهم أكـبـر (٦)

ولكن هذا الاعتقاد ظل مغلفا بالمعايير الجاهلية : النزعة القبلية، وعنجيهة أشراف القبائل وروح الترفع علي الآخرين.

ومن هنا فإن الخطوة الأولي لتنظيم «الدولة» تمثلت فى محاولة توحيد القيم والمعايير، «ومحاربة النزعات العصبية، والروح القبلية، فألحت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على الروابط الأخوية التي تقوم بين المسلم وأخيه، وتؤلف بين قلوب العرب جميعا»(٧)

وفي البدء كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.. وكان إلحاح الايات القرآنية «وإنما المؤمنون إخوة» (الحجرات ١٠). بما يعنيه ذلك من إضعاف الانتماء القبلي، وكذلك خطاب الرسول يوم فتح مكة «يا معشر قريش أن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب».

وفي محاولة لإلغاء خصومات وعنجهية الماضي قام الرسول بإبطال دماء الجاهلية. وحذا خلفاؤه حذوه «فوجهوا همهم إلى تحطيم عنجهية أشراف القبائل العربية والأرستقراطية الإعرابية،

وإلى وضع معايير لتقدير مكانة الرجال غير معايير الحسب والنسب. واشتد عمر بن الخطاب في قمع الدعوة إلى العصبية والنزعات القبلية، وفي تجاهل إمتيازات الشرف الموروثة عن الجاهلية، وكان يأذن في مجلسه للموالي الذين عرفوا بسبقهم إلى الإسلام قبل أن يأذن للنبلاء»[٨]

وبطبيعة الحال فإن محاولات الحد من نفوذ القبيلة وسلطة أشرافها كانت تنبع من قيم أخلاقية، ولكن الأهم إنها كانت تستهدف تعزيز سلطة «الدولة» على جميع «مواطنيها». وهو ما يعرقله الولاء للقبيلة والتمسك بها.

..«غير أن التعاليم الإسلامية والتدابير التي اتخذها الرسول وخلفاؤه، وإن أفلحت في إضعاف العصبية القبلية فإنها لم تفلح في استئصالها وإخماد أنفاسها. فلم يكن من اليسير القضاء- في برهة قصيرة- على نزعة رسخت جذورها في نفوس العرب منذ أقدم عصورهم، وجرت من نفوسهم مجري الدم في العروق»[٩]

ثم عاد الوضع ليتدهور نحو نزعة قبلية شرسة تجلت في الصراع بين علي (بيت بني هاشم) ومعاوية(بيت بني أمية) حتى بلغ الأمر بيزيد بن معاوية أن أرسل جيشه لغزو المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام، وفرض عليهم مبايعته بيعة العبيد. ثم صاح مزهوا:

ليت أشـــيــاخي ببــدر شـــهـــدوا

فـــزع الخـــرزج من وقع الأسل

لأهلـــوا واســـتـــهلوا فـــرحـــا

ولقـــالـــوا ليـزيـــد لا فـشل

إنه ثأر بنو أمـيـة القـديم منذ وقف الأنصـار(الأوس والخـزرج) يحاربون مع الرسول عند جيش ابي سفيان في موقعة بدر.

وقد تعاونت عوامل عدة علي إحياء العصبية القبلية، وبلغت أوجها في عهد علي وخلافه بني أمية، ثم تفاقمت علي مدى الزمان لتتأجج مرة أخرى في العصر العباسي(١٠).

ويصل الأمر بأحد الكتاب الشيعة إلى اتهام أبي بكر وعمر وعثمان «بالعنجهية القبلية» ونقرأ في قراءته لخطبة الرسول في حجة الوداع قائلا إنها تتضمن «الوصية» لعلي إذ قال الرسول «علي مني وأنا من علي، من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم والى من والاه وعاد من عاداه، أني مخلف فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي . فإنهما لن يفترقا حتي يردا علي الحوض» (ونلاحظ هنا إضافات على القراءة السائدة لخطبه الرسول) ثم تمضي الكتابة «غير أن الوصية مدقوقة كالوشم على جبين علي، لا التاريخ عمي، ولا أي رجل كريم من رجالات ذلك العصر كان يعمي

عن قراءة الحقيقة، ولكن سياسة الزعماء المتشربين روح القبلية هي العمية»٠

ثم تقول «لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجية، إنه كريم عفيف بين الرجال، ولكن عنجهية قبلية نائمة في بطانة نفسه ما سمحت له ولا قبلت أن يتقدم عليه وعلي أمثاله من وجهاء الجزيرة٠٠ فتي لايزال أمرد، لقد كان حس ابن الخطاب بمركز الزعامة أرجح من حسه بقيمة الرسالة» أن هناك «خبيئة من الماضي الوخيم تعشش فى ضلوعه، إنها الدودة فى وزيعة الأرث، إنها الأموية فيه ضد الطالبية الهاشمية تمرح بين الخطين، وتقضم من لحمة إلسفيانية ضد الطالبية الهاشمية، وها هو غياب الرسول يعيد الدودة إلى ربعها الأول، وإذا الوصية لعلي هي الأولى التي تتناولها بالقضم»(١١).

وتقول الكتابة ان ابن الخطاب «وظف اجتماع سقيقة بني ساعدة ليبعد علياً عن حقيقته وحقوقيته في الإمارة وإحلال ابي بكر فيها، كأن الرضوخ لمشيئة النبي هو الخطأ، وفي المعصية الصواب»(١٢).

ولأن لعلي مكانته المهيبة، فقد اقتضي ذلك من معاوية ومن أتباعه ما هو فوق المناقشات المتكافئة الأطراف، فرأينا معاوية وهو يستند فى هذه المواجهة إلى أحاديث مكذوبة «والله ما اردتها لنفسي لولا أني سمعت رسول الله يقول :يا معاوية إذا حكمت فأعدل»٠ وتتوالي

عشرات، مئات، بل آلاف الأحاديث التي تروج للحكم الأموي. وما أن أتي العباسيون على رماح فارسية حتي اشتعلت حمي المفاضلة بين العرب والموالي واضطر العباسيون إلى اصطناع أحاديث تبرر لهم الحكم المستند إلى الفرس «سئل رسول الله (صلعم) جاء في الآية الكريمة » فإن تتولوا نول قوما غيركم» فمن هم هؤلاء القوم؟ فوضع يديه على منكبي سلمان الفارسي قائلا: هذا الفتي ورهطه، والله لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله قوم من فارس»·· ويرد عليهم المتنبي قائلا:

وإنما الناس بالملوك ومـــا

تفلح عـرب ملوكـها عـجم

ويرد آخرون بحديث مصنوع «إذا اختلف المسلمون فالحق في مضر»·

وباختصار كانت فكرة السلطة وضرورة إنحيازها إلى هذا الطرف أو ذاك محلا لخلاف ضار إتخذ من القتال الضاري سبيلا، ومن الاستناد إلى الدين أو ما زعموا إنه الدين أداة و عدة وستاراً·

وكانت «الخلافة» والتطلع إليها هي السبيل لهذا الافتراق· ولعل هذا يوضح لنا مدى خطورة «تسييس الدين» أي استخدام الدين كستار أو كمبرر لتحقيق مطامح أو مطامع شخصية أو قبلية أو مذهبية·

- عن دولة الرسول

بدأ جنين هذه الدولة في «المدينة» «حيث اتسمت حياة المسلمين في السنوات الأولي التي أعقبت الهجرة بالبساطة الشديدة فكانت في كثير من الأحيان تفتقر إلى ضرورات الحياة»[١٣] لكن الأمور بدأت تتحسن «بعد فتح خيبر وتبوك، ثم تحسنت أكثر بعد فتح مكة، وانتهاء معركة حنين، واخذت تتدفق على المدينة أموال الجزية والزكاة من مختلف جهات شبه الجزيرة. فإزدادت موارد «الدولة». وازدادت ثروات الأفراد، وإن استمر وجود فقراء اعتمدوا على معونة الدولة وصدقات الأثرياء»[١٤].

واستطاع كبار القوم والحكام وكبار الصحابة أن يحوزوا ثروات طائلة «كان لمعاوية أبن أبي سفيان أموالا في المدينة تنتج سنوياً مائة وخمسين ألف وسق من التمر ومائه ألف وسق من الحنطة، وكان له عدد من الحوائط في ضواحي مكة المكرمة غنية بالمزروعات والنخيل. وكانت لعمرو بن العاص ضيعة بالطائف تغل عشرة آلاف درهم سنويا، وكانت لجعفر بن طلحة بن عبد الله ضيعة فيها عشرون ألف نخلة غلتها أربعة آلاف دينار في السنة»[١٥]

«وكان العرب قبل الإسلام يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ونقود اليمن الحميرية، وقد أقر الرسول التعامل بهذه النقود، وكذلك

فعل الخلفاء حتي أمر عبد الملك بن مروان (حوالي ٧٤ هجرية) بسك عملة جديدة ذهبية وفضية خالية من الشارات المسيحية والصور الآدمية»[١٦].

وإذ بدأت ملامح الدولة في التشكل، بدأت ملامح الرئاسة، فالرسول كان رئيس هذه «الدولة» «يبعث بالوفود والرسل إلى القبائل والدول ويستقبل الوفود، وهو الذي يعلن الحرب ويقر السلم ويعقد المعاهدات، وهو القائد الأعلي للجيش، والذي يبعث السرايا، وهو الرئيس الإداري الأعلي الذين يعين العمال ويعزلهم، والذي يقوم على تنفيذ أحكام الشريعة، وهو القاضي الأعلي. واتخذ الرسول من مسجده في المدينة مقراً للحكم»[١٧] واستعان الرسول بعدد من العاملين معه بعضهم تخصص في كتابة الوحي، والبعض في كتابة أموال الصدقات، أو كتابة المداينات والمعاملات ، أو كتابة الرسائل إلى الملوك... «وإلى جانب الولاة عين الرسول عمالا على منطقة كل قبيلة لجمع الزكاة والصدقات كذلك كان يعين قضاء للولايات»[١٨].

ثم توج ذلك كله بما يشبه الدستور.. أو المبادئ الأساسية للسياسة لهذه الدولة والتي سجلت في «الصحيفة» وقد صيغت في شكل معاهدة بين الرسول وبين يهود المدينة.. ونقرأ «هذا كتاب عن محمد النبي صلي الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش

ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش علي ربعتهم يتعاملون بينهم وهم يفدون عانيهم والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين..

وبنو ساعده...إلخ.»

وبعد أن تورد الوثيقة مكونات المجتمع الإسلامي «بنو ساعده، وبنو الحرث، وبنو الأوس.. إلخ»، مضافاً إليها ذات العبارة السابقة تبدأ في إرساء قواعد محددة.. «لا يتركون مفرجاً بنيهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يجاف مؤمن مولي دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغي دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن ايديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم..إلخ».

وتمضي الصحيفة «وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين» ثم تقول : «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأمة بطانة اليهود كأنفسهم».

ونقرأ تعقيبا على هذه المعاهدة يقول «بهذه المعاهدة السياسية

الحربية التي عقدت ومن نصوصها التي نصت على الرئاسة للرسول نشأت حكومة نظامية في يثرب أعلن فيها التسامح الديني والحرية العقيدية وإحلال الوحدة القومية محل الوحدة الدينية»[١٩]

وهكذا نجد أن دولة الرسول قد بدأت بمحاولة تخطي القبيلة نحو الدولة ثم تخطي الوحدة الدينية نحو الوحدة القومية.

أو هكذا كان المفترض، لكن الواقع بعد وفاة الرسول كان شيئاً آخر.

* * *

ويحمل الكثيرون مسئولية مبايعة أبي بكر وترك علي لعمر بن الخطاب، الذي برر ذلك بوضوح ودون خفاء قائلا لابن عباس «إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا في السماء شمخا بذخا»[٢٠]

لكن أبي بكر ما أن يلي الحكم حتي يعلن للمسلمين «إنه لا يستطيع أن يسوس الناس بسياسة الرسول لاختلاف الطبيعة بين من كان له سلطان ديني وبين من ليس له هذا السلطان»[٢١].

ولم يخف أبو بكر ذلك فقد وقف يوم توليه الخلافة «أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامي هذا كارها ولوددت أن فيكم من يكفيني» ثم يتساءل «أفتظنون أني أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذن

لا أقوم بها، أن رسول الله كان يعصم بالوحي، وكان معه ملك، وإن لي شيطانا يعتريني، ألا فراعوني، فإن استقمت فأعينوني وأن زغت فقوموني»(٢٢).

وما أن تولي أبو بكر وفوجئ بالبعض من أهل الجزيرة يمنعون عنه الذكاة، حتي شاور الصحابة وعلي رأسهم من كان المبادر ببيعته عمر بن الخطاب، وإذ لمح التردد في كلمات ومواقف أهل الشوري مبررين الأمر بالضرورات التي تبيح المحظورات، فقد خالفهم جميعا، وأظهر تشدداً معلنا «والله لو متعوني عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها»(٢٣) وهكذا ومنذ اليوم الأول أقر أبو بكر مبدأ أن الشوري غير ملزمة للحاكم. كما قرر أن أهل الشوري يقوم الحاكم باختيارهم، ذلك أن الشريعة لم تحدد كيفية اختيار أهل الشوري، ولا ممن يتم اختيارهم، والآية الكريمة حرصت (وهذا لم يأت مصادفة) على استخدام المبني للمجهول «وشاورهم في الأمر».

أما عن الاسم الذى تم اختياره للحاكم فيروي ابن الأثير إنه ظل ولأمد محل جدل «عندما ولي أبو بكر احتار المسلمون فى كيفية مناداته، وناداه أحدهم «يا خليفة الله» فغضب صائحا: «إنما أنا خليفة رسول الله» ونلاحظ أن البعض ما لبث في فترات التسلط أن اعتبر الحاكم خليفة لله فى الأرض.

فالأرض لله ولاها خليفته

وصاحب الله فيها غير مغلوب

بل أن بعض المتأسلمين المحدثين يصمم على أن الخلافة أو الإمامة هي خلافة الله في الأرض، باعتبار إنه مستخلف من الله عليها. ونعود لابن الاثير، فعندما ولي عمر ناداه المغيرة بن شعبة «يا خليفة الله» فجرى الحوار التالي:

- عمر : ذاك نبي الله داود.
- المغيرة : يا خليفة رسول الله.
- عمر : ذاك صاحبكم المفقود.
- المغيرة : يا خليفة خليفة رسول الله.
- عمر : ذاك أمر يطول.
- المغيرة : يا عمر.

فقال عمر لا تبخسن مكاني شرفه، انتم المؤمنون وأنا أميركم.

فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين.(٢٤)

لكن عمر بن الخطاب - وبرغم كل شيء- لم يعجب الكثيرين، ويروي أبو حيان التوحيدي «كان عمرو بن العاص يقول : لعن الله زمانا عملنا فيه لابن الخطاب. لقد رأيته وأباه وإنهما لفي شمله ما تواري أرساغهما، وأن العاص بن وائل (والد عمرو) لفي مقطعات

الديباج مزررة بالذهب»(٢٥).

وعندما توفي ابن الخطاب أتي ممثل الجماعة التي اختارها عمر لتختار الخليفة من بعده (وذلك بعد أن قال : والله ما أردت أن أحمل وزرها حيا وميتا) فقال لعلي بن أبي طالب : «يا علي إبسط يدك لابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين» لكن علياً أبي قائلا «كتاب الله وسنه رسوله نعم، أما الشيخين فلهما رأي ولي رأي» فتولى عنه وبايع عثمانا .

لكن الخليفة الجديد المشتهر بين الجميع بضعفه ووجه فور توليه باختبار صعب، ففور مقتل ابن الخطاب اندفع ابنه عبيد الله وقتل الهرمزان (مسلم فارسى) وجفينه (نصراني) وابنه أبي لؤلؤة (قاتل عمر) وهي ذمية.

واحتار عثمان واحتار معه المحيطون به في كيفية معالجة هذا الأمر. وانقسم الجمع إلى تيارين : على المتشدد أصر على ضرورة إعمال الحدود وقتل عبيد الله بن عمر قصاصاً. بينما رفض البعض «لئلا يقولون قتل عمر أمس وقتلوا ابنه اليوم» ووجد أكثر أهل الشوري دهاءً (عمرو بن العاص) مخرجا مريحا فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين لقد فعل عبيد الله فعلته وأنت لم تبايع بعد، ولم تكن خليفة، فدمهم ليس فى عنقك. ثلاثة آراء لأهل الشورى لكن عثمانا

(الذي قالوا إنه كان ضعيفا) تجاهلها جميعا، ودفع من ماله الخاص دية القتلي وأرضي ذويهم وأطلق عبيدالله.

لكن عثمان كان ضعيفا وظل ضعيفا فاستهان به العرب بما دفعه يوما إلي الصراخ من علي المنبر «كان ابن الخطاب يغلظ عليكم، ويؤذيكم بلسانه ويده، ويطأكم بقدمه ففخمتموه وعظمتموه. إلا أن حلمي هو الذى جرأكم علي».

.. ومات عثمان مقتولا. اثنان من الخلفاء الثلاثة للرسول ماتا قتلا.

* * *

والرابع علي بن أبي طالب مات هو أيضا قتلا.

وكان الصراع علي «الخلافة» بين على ومعاوية خطوة بل قفزة نحو تصعيد الصراع على السلطة.. ونحو «أسلمة» هذا الصراع وفي ذات الوقت- ويا للغرابة- إضفاء طابع قبلي عليه.

رجال معاوية اخترعوا عشرات بل مئات الأحاديث وكذلك بعض مناصري علي كل ينشد بها مساندة صاحبه. ونقرأ «هكذا كانت الأمور في جميع العهود، وفي كل العصور فالشريعة الالهية كانت تتحول دوما فى ممارسات البشر، تتكيف بحسب انتماءاتهم ولغاتهم وأهوائهم، وتتجدد في خطاباتهم ومقالاتهم، وتتنسخ فى تفاسيرهم

وتأويلاتهم ، فالمدنية الإسلامية وإن كانت ذات أصل نبوي إلهي فقد صنعها أناس عاشوا حياتهم بقضها وقضيضها مقيدين بقيود الزمان والمكان(٢٦) .

ونقرأ أيضاً «كانت الخلافة منذ نشوئها مؤسسة دنيوية مدنية، وهي لم تحسم مرة إلا وكان الحاضر هو الإنسان بأهوائه ومنطقه ومصالحه، وتكفي الإشارة هنا إلى أن ثلاثة من خلفاء الرسول ماتوا قتلا أو غيلة، وأن بعض الصحابة المبشرين بالجنة قد تنازعوا فيما بينهم واقتتلوا أيما اقتتال، وأنه لم تمض عقود على وفاة النبي حتي قتل حفيد أبي سفيان الذى انهزم أمام قوة الإسلام الصاعدة الكاسحة حفيد محمد ثأراً وانتقاماً، ومجمل القول أن خلافة النبي (صلعم) سرعان ما تحولت إلى ملك عضوض»(٢٧)

ولقد احتاج معاوية إلى الاستناد إلى حديث الأرجح أنه مكذوب يقول « الخلافة بعدي ثلاثون عاما وبعدها ملك عضوض»٠

ومن ثم وقف خطيبه في جمع من كبار القوم الذي قيل إنهم أهل البيعة قائلا «خليفة رسول الله هذا – وأشار لمعاوية – فإن هلك فهذا– وأشار إلى يزيد بن معاوية– ومن أبي فهذا وأشار إلى سيفه» وأعجب معاوية بحسمه وأيجازه فقال له : إنما أنت أخطب العرب»٠

وبدأت منذ ذلك الحين بيعة المكره، ونسي الجميع أو تناسوا أن

بيعة المكره باطلة، كما أن طلاق المكره باطل.

ومع الملك العضوض تجبر خلفاء بني أمية ومارسوا حكماً شديداً متشدداً وطاردوا خصومهم من دعاة على بعنف بالغ يتسم بالوحشية فى أحيان كثيرة، ولأن ذلك كله حرام في دين الله، ولأنه كان يتحتم على المسلمين القبول بهذا الظلم، فقد شرح علماؤهم «القضاء والقدر» كما يلي: «القضاء علم الله الأزلي أما القدر فهو نفاذ هذا العلم فى عالم الواقع» ومن هنا لا يكون أمام المسلم سوي الاستسلام لما يقع طالما هو مقدر سلفاً بأمر منه تعالي. وانتهز الخلفاء الأمويين سيادة هذه الفكرة فطغوا وبغوا وفجروا جهارا نهاراً.

ويروي السيوطي «أن الخليفة عبد الملك بن مروان(حكم ٧٣هـ إلى ٨٦هـ) كان عابداً زاهداً ناسكاً في المدينة قبل خلافته، وقال نافع : ما رأيت فى المدينة شاباً أشد تشميراً، ولا أفقه ولا أنسك، ولا اقرأ لكتاب الله من عبدالملك بن مروان وقد سماه الناس حمامة المسجد. فلما أتاه خبر مبايعته بالخلافة كان المصحف في حجره فأطبقه قائلا هذا آخر عهدنا بك. ثم وقف موقف الخليفة خطيبا فقال «أيها الناس لست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا بالخليفة المداهن (معاوية) ولا بالخليفة المأفون (يزيد). ألا إني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتي تستقيم لي قناتكم، والله لا يفعلن أحد فعله إلا جعلتها

في عنقه، والله لا يأمرني أحد بتقوي الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه»(٢٨).

أما وليد بن عبدالملك فما أن أبلغوه بوفاة هشام ومبايعته هو بالخلافة حتي أنشد جهاراً:

طاب يومي ولذ شــرب الســلافــة
وأتانا نعي من الرصـــافـــة
وأتانا البــريد ينعي هشـــامــا
وأتانا بخـــاتم الخــــلافـــة
واصطحبنا من خمر عانه صرفاً
ولهـــونا بقـــينه عـــرافـــه

ثم إزداد فجوراً فقال:

انا الإمــام الوليــد مــفــتــخــرا
أجــر بردي وأســمع الغــزلا
مــا العــيش الاسـمــاع مــحـسنة
وقــهــوة تتــرك الفــتي ثمــلا
أســـحب ذيلي إلى منازلهـــا
ولا أبالي من لام أو عـــــذلا
لا أرتجي الحــور في الخلود وهل

يأمل حور الجنان من عقلا(٢٩)

«وكان الحكم الأموي حكماً إمبراطورياً يرتدي ثوب الخلافة الإسلامية. ولقد دامت إمبراطورية الأسرة الأموية تسعين سنه لم يسد فيها العدل ولا رعاية مصالح الناس ولا الشوري إلا فى زمن قصير لرجل واحد هو عمر بن عبدالعزيز. وكان ذلك سبب استشهاده مسموماً من الناقمين عليه من أمراء الأسرة الأموية»(٣٠)

وإنهار الحكم الأموي بعد أن روي الأرض بدماء كثيرة وظلامات أكثر، وأتي العباسيون يترأسهم أبو العباس السفاح «فكان يتتبع كل أموي ليقتله، وكان بنو هاشم جميعا يضمرون لبني أمية عداء قديما منذ أيام الجاهلية، وعداء باقي الأثر لم تزده الخلافة الأموية وأفاعليها ببني هاشم إلا تفاقما وازدياداً. آلاف من الأمويين قتلوا، وأحيانا كان ثأر الواحد من بني هاشم ثلاثمائة قتيل من بني أمية. وكان الأمر ثأراً قبلياً ونزعة جاهلية سافرة. فقد دخل سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان علي السفاح العباس مبايعاً فأكرمه وأمنه، فصاح شاعر هاشمي كان بالمجلس :

لا يغرنك ما تري من رجال

إن تحت الضلوع داءً رويا

فضع السيف وإرفع السوط حتي

لا ترى فـــوق ظهـــرها أمـــويا

فـعــاد الثــأر القـبلي ليطل برأســه ، وقــام الســفــاح فـقــتل سليمان»(٣١).

وبرغم هذه الوحشية، كان الغطاء الإسلامي ضروريا ففي خطبته بعد مبايعته قال أبو العباس (السفاح). «الحمد لله الذي اصطفي الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله،.وكهفه وحصنه، القوام عليه، الزادين عنه، والناصرين له».

والثمرة المريرة من ذات الشجرة المريرة المذاق «فالخلفاء الأمويون كانوا ١٤ والعباسيون ٢٢. مات منهم ١٧ غيلة. لكن الأكثر مرارة أن القتلة كانوا الأقارب.. زوجات، أخوة ،أو حتي أبناء، بل أن أما قتلت ابنها.. أية وحشية هذه؟

ويقدم أحد الباحثين ملاحظة ذكية «لقد أدرك المسلمون منذ البداية هذه الحقيقة نعني دنيوية الحكم ومدنيته. وعلي هذا النحو مارسوا السلطة ونظروا إليها وتحدثوا عنها، لذلك لا نجد دولة من الدول التي تعاقبت على الحكم إلا ونسبت إلى أصحابها والقائمين بها، أي إلى العنصر والعرق، أو القبيلة والأسرة، أو الشخص والفرد فقيل مثلا: الخلافة الأموية، والخلافة العباسية، وقيل الدولة السلجوقية، والدولة الحمدانية. وفي هذا دليل علي أن السلطة ليست

إلهية، لا في طريقة نشوئها، ولا في ممارساتها. إنه دليل – علي أية حال علي التمييز بين السياسي والديني، أو بين الدنيوي والديني»(٣٢).

باختصار كانت عقود الخلافة حكماً مدنياً سياسياً قبلياً.. ولا علاقة له بصحيح الدين سوي الرداء الخارجي.

* * *

وكان طبيعيا أن تؤثر البلاد المفتوحة على الفاتحين. فالعرب وهم يندفعون خارج شبه الجزيرة كانوا في واقع الأمر يعبرون حاجزاً حضارياً. فقد خرجوا من عالم بسيط يستند إلى تلقائية الأفعال وردود الأفعال إلى عالم معقد يمتلك أشكالا منظمه ومتسقة من الحكم.

وقد عثر في قرية العوجه على برديات تحكي صوراً شتي من الحياة الاجتماعية. ومنها بردية (اعطيت رقم ٥٦) مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ومؤرخة عام سبع وستين هجرية. وموضوع البردية «أن الأسود بن عدي أقرض المدين الأب قيارا خمسين ديناراً ، ويقر في الوثيقة إنه قد استوفي حقه، ومن ثم فإن الأب قيارا وابنه لهما الحق في الذهاب حيث يشاءان»(٣٣) ومعني ذلك واضح تماماً وهو أن القانون الروماني كان مطبقاً في عهد الدولة الأموية، وهو قانون

يعطي للدائن حق احتجاز المدين جسدياً حتي يستوفي حقه منه.

أما التأثير الفارسي وحتي البيزنطي فقد كان واضحاً تماماً أيام الدولة العباسية.

ونقرأ للأستاذ أحمد أمين «كان لنفوذ الموالي خاصة الفرس في الدولة العباسية مظاهر عدة: ١ - أن قصور الخلفاء ملئت بالموالي يستخدمون في أعمال شتى، وبيوت الحريم ملئت بالخصيان، وقد أخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب. ٢ - قصر المراكز الكبيرة كالوزارة علي الفرس تقريبا. ٣ - نفوذ العادات والتقاليد الفارسية كإحياء يوم النيروز ولبس القلنسوة. ٤ - انتشار الثقافة الفارسية»[٣٤] ويمضي أحمد أمين «خذ مثلا عيد النيروز وكان عيدا قديما للفرس، وقد اتخذه العباسيون عيداً قوميا يحتفلون به احتفالهم بعيد الفطر، ويتبارون فيه بالهدايا والقصائد، ويجلس فيه الخلفاء للتهنئة. وقل مثل ذلك في الأزياء فانتشرت القلنسوة وضروب الأزياء الفارسية . اتخذ القضاة القلانس العظام، واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس ، وتفننوا في العمامة كما كان يفعل الفرس»[٣٥].

ويمضي أحمد أمين . ووصل الأمر إلى أن الفرس قد حاولوا فرض عاداتهم بشرب النبيذ «حتي شاع أن بعض الفقهاء في بغداد

قد أباحوا شرب النبيذ باعتبار إنه ليس خمراً. كما أن الإمام أبي حينفة قد فسر الخمر في القرآن بأنه عصير العنب مستنداً إلي المعني اللغوي لكلمة خمر، وأداه اجتهاده إلي تحليل بعض أنوا ع من الأنبذه كنبيذ التمر والزبيب إن طبخ أيسر طبخ وشرب منه قدر لا يسكر. وكذلك نبيذ العسل والتين والبر. ويظهر أن الإمام أبا حنيفة كان يتبع فى هذا الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود»(٣٦) ويروي عن ابن مسعود «إنه كان يري أن النبيذ حلال حتي كثرت الروايات عنه، وشهرت وأذيعت واتبعه عامة التابعين من الكوفة وجعلوه أعظم حججهم حتي قال شاعرهم عن النبيذ:

إني لأكره تشديد الرواه لنا فيه

ويعجبني قول ابن مسعود»(٣٧)

وقد أدى هذا الاختلاف الحضاري إلى كثيرمن التلاعب بالقيم الدينية حتي قال البعض «أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق النبيذ وحرموا الغناء فأوجدوا فى الرخصة فيهما عند اختلافهما إلى أن يقع الاتفاق، فشربوا النبيذ وأباحوا الطرب والغناء»(٣٨). ووصل الأمر بأحد المتقين «وهو بشر بن الحارث أن قال : أن بغداد ضيقة على المتقين لا ينبغي لمؤمن أن يقيم فيها»(٣٩).

ويذكر أحمد أمين «أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم من

العجم سواء فى العلوم الشرعية أو العلوم العقلية، إلا في القليل النادر. وإن من كان منهم عربيا فى نسبته فهو عجمي فى لغته ومرباه ومشيخته»[٤٠] وأيضا «ومن المحدثين الهنود أبو مشعر نجيج السندي صاحب المغازي، سمع نافعاً ونفراً من التابعين، وكان «ألكن» يقول حدثنا محمد بن قعب يريد أن يقول ابن كعب»[٤١].

كما وضع الفرس قواعد الإدارة والقوانين وغيرها متأثرين بحضارتهم «فابن المقفع الفارسي الأصل وضع للخليفة المنصور رسالة أسماها «رسالة الصحابة» يقصد صحابة الخليفة تحدث فيها عن كيفية تنظيم جهاز الحكم والجند والقضاء والخراج والدواوين غيرها. وانتقد ابن المقفع ترك القضاء دون تقنين فاقترح أن يعمد أمير المؤمنين إلى الحجج والبراهين ويختار ما يراه صوابا ثم يدون في كتاب . وتعمل منه نسخ ترسل إلى الأمصار، ويلزم القضاه بالحكم به، وإذا وجدت حوادث وجب على كل إمام أن يدخل علي هذا القانون ما يجد، وما تدعو إليه الحاجة وهكذا إلى آخر الدهر»[٤٢].

ولعل «الخلفاء» كانوا بحاجة إلى سند روحي ليبرروا نزوعهم نحو الحضارات الأخرى. يقول صاحب الفهرست «إن أحد الأسباب التي من أجلها كثرت كتب الفلسفة أن المأمون رأي فى منامه رجلا جالساً

على سريره. قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت هيبه فقلت من أنت قال : أنا أرسطاليس، فسررت به وقلت :أيها الحكيم : ما الحسن؟ قال : ما حسن في العقل. قلت : ثم ماذا؟ قال : ما حسن في الشرع. قلت ثم ماذا؟ ما حسن عند الجمهور. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب»(٤٣).

ويلخص أحمد أمين الوضع قائلا «كان كثير من العرب والمسلمين ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية، ويؤلف منهما مزيجاً لا هو يوناني بحت ولا هو إسلامي بحت. وظهر أمثال إخوان الصفا والفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم»(٤٤).

لكن المأمون وغيره من «الخلفاء» كان يخفي تحت عباءة العلم والفلسفة أو التفلسف طغيانا وإجراما لا حدود لهما وعندما قال مع المعتزلة بخلق القرآن، أمر بامتحان كل العلماء وكل من لم يقل بالخلق اعتبر كافراً مرتداً وقتل.

وقد استباح أموال بيت المال لنفسه وانفق منها الكثير على شهواته «وفي مناسبة زواجه من ابنه وزيره الحسن بن سهل وزع على حاشتيه كل فرد عشرة آلاف دينار، وأعطى عروسه ألف ياقوتة، وأوقد لها شموع العنبر، وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللا

بالدر والياقوت»[٤٥].

ولو أفضنا في مثل هذه الكتابة ما انتهينا . وخلاصة ما نريد أن نقول . أن «الخلافة» الممتده طوال الحكم الأموي والعباسي وما تلاها حتي «الخلافة» العثمانية لم تكن سوي حكم سياسي متستر برداء ديني يمارس من خلفه طغيانا وإجراماً لا حدود لهما .

إنه حكم سياسي إنساني ولا علاقة له بما يرتديه من ثياب دينية.

ذلك أن الإسلام ما كان ليكون هكذا .

* * *

ويقتادنا ذلك إلى علاقة الخلافة بصحيح الدين.

والحقيقة أن الخلاف بين على ومعاوية قد ألهب موضوع الخلافة. وكلما أشتدت معارضة الطرف المستبعد للطرف الذي امتلك مقعد الخلافة، كلما تسارع أنصار هذا الخليفة باختراع وإبتداع أحاديث وأقاويل تؤكد أن الخلافة منحة سماوية وأن على المسلمين، كل المسلمين الطاعة لولي الأمر «الخليفة» مهما فعل ومهما قال.

ولعل هذا هو الذى أنتج فكر «المرجئة» وهم الذين يدعون لإرجاء البت فى الخلاف بين عثمان وعلي ومعاوية وعلي إلى الله حتي يحكم بينهم.

وكان المرجئة يعيشون في عصر مشاحنات لا تنتهي ويستمعون

إلى شاعر يقول:

إذا فـــاخــــرتمونا فـــإذكــــروا

مـــا فـــعلنا بكم يوم الجـــمل

وعـــفـــونا فنســـيـــتم عـــفـــونا

وكـــفـــرتم نعـــمـــة الله الأجل

وسمعوا امرأة خارجية هي أم حكيم ترتجز وهي تخوض معارك القتال (وكانت محاربة شديدة المراس) فتقول :

أحمل رأسا قد سئتمت حمله

وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتي يحمل عني ثقله

وشهدوا أناساً يخضعون للخليفة خوفاً ورهبة فيقولون ما لا يجب أن يقال ويهاجمون اعدائه بما لا يجب، وشعروا بأن النفاق سيد الموقف، بل وسيد الجميع إلا الذين حملوا سيف المعارضة.

إن الخليفة قد أبي

وإذا أبي شيئا أبيته

ساد النفاق والتزلف للخليفة مهما كانت معاصيه مستندين إلى قول بدأ فى الرواج «لا تضر مع الإيمان معصية»، الأمر الذي دفع الشاعر إلى القول عن واحد من المنافقين:

ما قال لا إلا فى تشهده

لولا الشهادة كانت لاؤه نعم

وبرغم ذلك استمر المدافعون عن فكرة الخلافة متمسكين بها، واتخذوها سلما لتحقيق أهداف شخصية٠٠ ونقرأ لابن حزم:

«قام المختار الثقفي فجمع آلافا من مريدي آل البيت فواجه الدولة الزبيرية والدولة الأموية رافعا شعار إعادة الحكم لآل البيت، واستخدم كل ما لدي أهل الكوفة من ندم وألم لخذلانهم على وبنيه زاعما إنه يشهر سيفه لاحقاق حق الخلافة لمحمد بن الحنفية (وكان آخر سلالة على وكان ابنه من زوجة غير فاطمة)٠ وظهر الثقفي علي الزيديين والأمويين فنالتهم منه هزائم منكرة٠ وفيما كان محمد بن الحنفية منزويا منكورا من الجميع في المدينة ترامت إلى مسامعه أخبار ملاحم المختار الثقفي وانتصاراته وهو يرفع رايته داعيا إلى حقه فى الخلافة، فطمع فى الأمر وشد رحاله هو وآل بيته إلى الكوفة كي ينصب نفسه أو ينصبه اتباعه ومريدوه خليفة للمسلمين٠ وبهت الثقفي من إظهار ابن الحنفية لنفسه والثقفي ما ارادها إلا لنفسه، فوقف فى جموع يملؤها الابتهاج بورود الخليفة الموعود فأعلن فى خباثة ظاهرة إن للإمام محمد بن الحفنية علامة لا تخطئ وهي إنه إذا ضرب عنقه بالسيف فإنه لا يموت ببركة أبيه علي بن أبي طالب٠

وأدرك ابن الحنفية المراد فتسحب وآل بيته عائداً إلى حيث كان»(٤٦).

وفي الزمن الحديث يروج البعض للخلافة لأنه يبرر بها قيامه على الحاكم لوطن واحد، ولعله يريدها لنفسه أو لجماعته.

ولن نخوض طويلا في هذه الإدعاءات فقط سنورد أمثلة سريعة تحدد اتجاهات التفكير.

ونقرأ لأبو الأعلي المودودي (وهو الأب الروحي لجماعات التأسلم الحديث) «أن الدولة الإسلامية تقوم على أساس حاكمية الله الواحد، فالأمر والحكم والتشريع كها مختصه بالله وحده. وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب ولا حتي النوع البشري كله، وإنما تكون لحاكم يقوم بوظيفة خليفة الله، فليس لأحد أن يأمر وينهي من غير أن يكون له سلطة من الله»(٤٧)

وهو يكاد يكرر قول رشيد رضا (بعد أن تراجع كثيرا عن تعالم أستاذه الإمام محمد عبده) «الخلافة الإسلامية هي الحكومة المثلي التي بدونها لا يمكن أن يتحسن حال البشرية» فهي «خير دولة ليس بالنسبة للمسلمين فحسب ولكنه بالنسبة سائر البشر»(٤٨).

ونأتي إلى حسن البنا الذي يقرر في بساطه «أن الخلافة تقوم لوراثة النبوة»(٤٩).

ومن عباءة حسن البنا خرج شكري مصطفي الذي نصب نفسه «أميراً» للجماعة المسلمة التي اسماها «جماعة الحق في آخر الزمان» وأسمى نفسه «طه المصطفي شكري أمير آخر الزمان»(٥٠)

ونلاحظ على هذه الأقاويل:

أن المودودي قال أن الخليفة هو خليفة الله (وهو ما رفضه أبو بكر منذ يوم وفاة الرسول) وأن له «سلطة من الله» وهو ما يعني أن أحكامه وقراراته وسياساته مقدسة لا يجوز المس بها أو انتقادها.

وإن رشيد رضا يري أن الخير يأتي من فرض دولة الخلافة على العالم أجمع وحتي علي غير المسلمين.

وإن حسن البنا قال أن الخلافة جاءت وتجئ لوراثة النبوة. فإذا كان «الخليفة» وارثا للنبوة فمن يمكن أن يعارضه؟ ثم كيف يكون «الخليفة» وارثا للنبوة والنبي (صلعم) كان يحكم بوحي يوحي إليه؟ كيف ولم يقل أبو بكر أو عمر إنه وارث للرسول الذي بموته أنقطع الوحي، وأصبح الحكم إنسانيا يأتي عليه احتمال الخطأ والصواب؟

ونمضي مع دعاة التأسلم المحدثون.

صالح سرية «لا جهاد إلا بوجود خليفة للمسلمين»(٥١)

أما الشيخ عمر عبدالرحمن (الجماعة الإسلامية). فقد قال «الإمامة في الإسلام موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين

وسياسة الدنيا. والخليفة فى الإسلام مهمته وراثة النبوة بإقامة أحكامها ويجمع ذلك أمران إقامة أحكام الدين وسياسة الدنيا بالدين»(٥٢) وهو يعدد شروط الواجب توافرها في الخليفة قائلا «وقد حدد العلماء شروط الإمامة وهي أن يكون ذكراً، حراً، بالغاً، ، مسلماً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب، قرشيا على الصحيح فى الأقوال»(٥٣).

وفي مجلة المجلة اللندنية نقرأ رأيا لمن أسمى نفسه «عمر بكري، عضو حزب التحرير الإسلامي في بريطانيا- أستاذ الشريعة لتعليم أصول الدين في لندن» (هل ثمة شئ اسمه أستاذ الشريعة لتعليم أصول الدين..؟ أين وفي أي معهد في لندن؟) يقول «أن حزب التحرير موجود في بلاد المسلمين عامة، والحزب يستهدف الدخول فى صراع فكري مع أفكار الفكر السائدة في المجتمعات وإظهار فسادها ومخالفتها للشرع، ويصاحب هذا الصراع الفكري صراع سياسي ضد أنظمة الفكر الحاكمة في بلاد المسلمين وذلك بكشف عوارها وتآمرها مع الكفار ضد الإسلام. ويتقصد حزب التحرير طلب النصرة من الفئة القوية من أبناء المسلمين كالقوات المسلحة في بلاد المسلمين لتقوم بإرجاع سلطان الأمة المسلوب منها لنصب خليفة تبايعه» وقال «إننا نتفق مع جماعات الجهاد في مصر والجزائر فى

الأصول والمبدأ وإن اختلفنا معها في الفروع»(٥٤) .. إنه يطمح إلي خلافة تقوم عن طريق سلسلة من الانقلابات العسكرية في كل بلاد المسلمين ، ولم يقل كيف سيتفق هؤلاء العسكر الانقلابيون علي عسكري منهم ليكون خليفة لكل العالم الإسلامى، أليس هذا مثيراً للدهشة؟

وحتى الدكتور سليم العوا يترحم- هو أيضا- علي زمان الخلافة العثمانية التعيس والذي قدم نموذجا مشوها ومليئا بالاضطهاد والقهر للشعوب الإسلامية قائلا «منذ إنهارت الخلافة العثمانية تفرقت قوة المسلمين وتمكن عدوهم من السيطرة علي مقدرات بلادهم جميعا»(٥٥).

ونقرأ آراء مضادة لهذه الفكرة التي تقول بحتمية قيام الخلافة.

- الشهرستاني يقول :«إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد»(٥٦).

- والجرجاني يقول : «إن الخلافة ليست من أصول الديانات والعقائد بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين»(٥٧).

- والغزالي يقول «أن نظرية الإمامة ليست من المعتقدات»(٥٨).

- أما أبو حفص عمر بن جميع فيقول : «إن الإمامة مستخرجة من الرأي وليست مستخرجة من الكتاب والسنة»(٥٩).

ونعود مرة أخرى إلى الشروط التي وردت فى كتب التراث (ولقد حرصنا دوما على التفريق بين الكتاب والسنة الصحيحة وبين كتب التراث التي تضم آراء تحتمل الصواب والخطأ) إذ يقول الطبري أن أبي بكر أكد في سقيفة بني ساعده «يا معشر الأنصار فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وانتم له أهل ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر (خلافة الرسول) إلا لهذا الحي من قريش»(٦٠).

ثم يورد شروط الإمامة عند جمهور أهل السنة «أن يكون مسلماً، حرا، عاقلاً، بالغاً، ذكرا، سليمان فى حواسه وأعضائه، كفؤا، عالماً، شجاعاً، عادلاً، قرشياً».

ويقول النسفي المسمي مفتي الثقلين «يشترط فى الإمام أن يكون من قريش ولا يجوز من غيرهم» (٦١).

ويقول القاضي عضد الدين «إن وجوب نصب الإمام علي المسلمين يتحقق إذا وجد شخص مستجمع شروط الإمامة وإلا فلا يجب»(٦٢)

والسؤال الملح هل يمكن مبايعة خليفة للمسلمين جميعا في كل أقطار الأرض؟ متى؟ وكيف؟ ومن يبايعه هل البرلمانات التي توصف بأنها شرك من عمل الشيطان الاستبكاري؟ أم شراذم من المتأسلمين الذين يكفرون كل من عداهم؟ بل وأحيانا يكفرون بعضهم البعض.

لكننا نعود إلى واحد من أشهر فقهاء السنة هو الآمدي لنقرأ «وإعلم أن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الديانات، ولا من الأمور اللابديات (من لابد– أي من الضرورات الدينية) بحيث لا يسع المكلف الأعراض عنها والجهل بها. بل لعمري أن المعرض عنها لأرجي حالا من الواغل فيها، فإنها لا تنفك عن التعصب والأهواء، وإثارة الفتن والشحناء، والرجم بالغيب فى حق الأئمة والسلف بالأرزاء، وهذا مع كون الخائض فيها سالكا سبل التحقيق، فكيف إذا كان خارجا عن سواء الطريق؟»

وعندما ألغي كمال أتاتورك الخلافة في تركيا وتصور البعض أن الدنيا قامت ولن تقعد قام عدد من رجال الدين الأتراك فأصدروا كتابا بعنوان «الخلافة وسلطة الأمة» فندوا فيه فكرة الخلافة وقالوا «لو كانت مسألة الخلافة – كما يظن البعض من المسائل الدينية الرئيسية لبين الرسول الأكرم تفاصيلها وهو الذي لم يضن ببيان وصاياه في أبسط الفروع والآداب والعادات مثل تقليم الأظافر وإعفاء اللحي وأمثالها» ثم «وفضلا عن هذا فإنها لو عدت من المسائل الدينية الأصلية للزم حينئذ أن يكون دين الإسلام ناقصاً ولم يكتمل فى زمن النبي، لأنه لم ترد نصوص شرعية بخصوصها في زمنه. والآية الكريمة تقول «اليوم أكملت لكم دينكم»، ومن ثم فإن ترك

الحديث عنها إنما يعني أنها ليست لازمة»(٦٤).

ويمضي أصحاب الكتاب قائلين «الرسول الكريم هو خاتم الأنبياء وقد سكت عنها وعن موضوع الحكم جمله وشكله وكيفية اختيار الحاكم وسلطته وحدود سلطانه، ومن ثم فهي من الأمور المسكوت عنها. والمسكوت عنه متروك لاستحسان البشر»(٦٥).

ثم «لقد ترك الرسول الأكرم أمر الحكم إلى أمته ولم ينصب خليفة له، ولم يوص به حين ارتحاله، ولو ورد منه رأي بحق أي منهم لما وقع خلاف بينهم في أمر تنصيب الخليفة، فقد اختلفوا فى انتخاب واحد من بينهم بعد ارتحال النبي»(٦٦).

ويقول الكتاب «إن المحقق الإسلامي صدر الشريعة المتوفي سنة ٧٤٧هـ. قال فى كتابة «تعديل العلوم» بعد أن ذكر شروط الخلافة وصرح بأنها ختمت فى الثلاثين سنة التالية لوفاة الرسول، وتأسست بعدها السلطنة التي هي عبارة عن الرئاسة الدنيوية فإنه قد سقط من الشرائط ما تسقطه الضرورة»(٦٧) ثم يقول «إن حضرة الأمام المعظم أبي حنيفة وهو من أكبر أئمة الدين لم يقبل الخلافة الأموية ولا العباسية ولم يجزها، ولهذا رفض تولي القضاء أولا فى زمان الأمويين ثم في دور العباسيين حين كلفوه به، بل كان يعطي الفتاوي سراً بلزوم أداء الذكاة والعشر الشرعي إلى أحفاد علي بن أبي

طالب» ويقول «لا يخفي علي قارئ تاريخ الإسلام ما ارتكبه الخلفاء الأمويون من الظلم والسفه بحق أحفاد الرسول (صلعم)· وما سبق منهم من الجور عليهم والجفاء لهم، ثم تأسست الدولة العباسية على الظلم والاعتساف والقهر والتغلب، فإن عدد الذين قتلهم أبو مسلم الخراساني من الأمويين يبلغ ستمائة ألف، أما عبدالله بن علي عم أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين فقد أجرى مقتله عامه في الشام حين استيلائه عليها · وقتل تسعين من الأعيان بالعصى بعد أن دعاهم إلى مأدبة طعامه، ونصب على أجسادهم السياط، وأكل براحة ضمير وبلا تأثر، ومنهم من لم يزل حيا يئن محتضرا · كما إنه فتح قبور الخلفاء الأمويين وأحرق أجسادهم وعظامهم· وكذلك سليمان بن على أخوه قتل من لقيه من الأمويين بالبصرة وأمر بجر جثثهم في الأزقة وتركها طعاما للكلاب»(٦٨)·

ثم يقول «أن النص فى القانون الأساسي العثماني علي أن : ذات الحضرة السلطانية مقدسة وغير مسئولة أمام أحد هو أمر مخالف للشرع كليا» ومن ثم فهم يختتمون الكتاب قائلين «ونقول بكمال الاخلاص أن مسألة الخلافة لا تستحق الإعظام، لأن الذي عظمها ليس الشريعة بل أصحاب الأفكار البسيطة الجامدة الذين يميلون دائما إلى إبقاء القديم على قدمه من غير نفاذ إلى الحقائق الشرعية·

والخلاصة أن مسألة شكل الحكومة هي من المسائل التابعة لمقتضيات الزمان، وتتعين أحكام مثل هذه المسائل حسب تطورات هذه الأحوال والبواعث، ولذلك لم يضع الشارع أحكاما شرعية في مثل هذه المسائل واختار السكوت عنها»(٦٩).

والحقيقة أن الحكم «الخلفاء» كان يدور دوما حول شخصهم وحول استمرار ملكهم وتسلطهم علي البشر وهو ما اوضحه معاوية «لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»(٧٠).

ونمضي سريعا- كما اعتدنا- مع مخالفي فكرة الخلافة.

- قاسم أمين يقول «أما من جهة النظامات السياسية فإننا مهما دققنا البحث فى التاريخ الإسلامي لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمي نظاما. فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد يحكم موظفين غير مقيدين. وربما يقال أن هذا الخليفة كان يولي بعد أن يبايعه أفراد الأمة، وأن هذا يدل على أن سلطته مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر، لكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب إلا شكلا ولبضع دقائق هي سلطة لفظية، أما في الحقيقة فإن السلطان هو صاحب الأمر وحده»(٧١).

- الأستاذ الإمام محمد عبده يؤكد «الأمة هي صاحبة الحق فى السيطرة على الحاكم، وهي التي تخلعه مني رأت ذلك من مصلحتها،

فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، فالإسلام لا يجعل للقاضي أو المفتي أو لشيخ الإسلام أية سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء هي سلطة مدنية، ولا يسمح لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد، أو عبادته لربه، أو أن ينازعه في طريقة نظره. ثم يقول : «أما الفكرة الشائعة عن توحيد الإسلام بين السلطتين المدنية والدينية فهي خطأ محض، ودخيلة علي الإسلام، ومن الضلال القول بأن الإسلام يحتم قرن السلطتين فى شخص و احد، والزعم تبعا لذلك بأن السلطان مقرر الدين وواضع أحكامه ومنفذها وأن المسلم مستعبد لسلطاته»(٧٢).

ونمضي مع الأستاذ الإمام «إن الإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية، وهي دعوي القداسة والوساطة عند الله، ودعوي التشريع والقول على الله بدون إذن الله، أو السلطة الدنيوية وهي سلطة الملك والاستبداد ، فالمؤمن لا يرضي أن يكون عبدا لبشر مثله»(٧٣)

ثم «أن الرسول (صلعم) كان مبلغاً مذكراً، لا مهيمنا ولا مسيطراً، وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الإسلام علي آخر مهما انحطت منزلته إلا حق النصيحة والارشاد» و«الأمة هي صاحبة الحق فى السيطرة على الحاكم، وهي تخلعه متى رأت ذلك مصلحتها،

فهو حاكم مدني من جميع الوجوه»[٧٤].

أما جمال الدين الأفغاني فيقول «أن على الأمة أن تبايع حاكمها بعد أن تشترط عليه وبعد أن يقسم على الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي (الدستور) وتتوجه على هذا القسم وتعلنه: يبقي التاج على رأسه ما بقي محافظا أمينا علي صون الدستور، وإنه إذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة أما يبقي رأسه بلا تاج أو تاجه بلا رأس[٧٥].

فأين هذا من القول بسلطة مطلقة ومقدسة وأبدية للخليفة الذي يسمونه «خليفة الله» أو يقولون إنه «ظل الله في الأرض» «أو «وريث النبوة»؟

ونمضي مع معارضي فكرة الخلافة..

نمضي سريعا نلتقط بضع عبارات فقط من معركة الشيخ على عبدالرازق ضد فكرة الخلافة «فشعائر الله تعالي ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء خلافة، ولا على أولئك الذين يسميهم الناس خلفاء، والواقع إن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شئ من ذلك، فليس من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا، أو الأمور دنيانا، ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة علي الإسلام والمسلمين وينبوع

شر وفساد»(٧٦).

ويقول «وإذا كان في الحياة الدنيا شئ يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ويسهل عليه العدوان والبغي فذلك هو مقام الخليفة» ويقول « أن الخلفاء والسلاطين استبدوا بالمسلمين وحجبوا عنهم نور الحق وأذلوهم باسم الدين، وحرموا عليهم النظر فى أمور السياسة باسم الدين، وخدعوهم وضيقوا علي عقولهم في فهم الدين، فصاروا لا يرون غيرالدين مرجعا حتى فى أمور الإدارة الصرفة والسياسة الخالصة، وأدى ذلك إلى موت ملكة التفكير الرصين عند المسلمين» ثم «لا شئ فى الدين يمنع المسلمين من أن يدينوا ذلك النظام العتيق (نظام الخلافة) الذي ذلوا به واستكانوا إليه، وإن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما انتجت العقول البشرية»(٧٧).

ودفع الشيخ الجليل ثمنا باهظاً لأنه قال ما يعتقد.

ونسرع نحو مفكر آخر د. حسين فوزي النجار «وضع محمد (صلعم) مبادئ الحكم والسياسة، ولكنه لم يضع نظاماً للحكم، ولم يتخذ فى السياسة قاعدة أو أسلوبا إلا ما يتفق مع مبادئ الأخلاق وهدي الرسالة وخير المسلمين، ومن الخطأ أن نقول أن محمداً كان يسوس أمور الدين، إلى جانب قيامه بشئون الجماعة الإسلامية، فإذا جاز لنا أن نقول إنه قام مع الصحابة بسياسة المسلمين، فما كان في

أمور الدين إلا مبعوثا اختاره الله لتبليغ رسالته» ويقول «ولم يأت في القرآن ما يشير إلى إقامة الدولة، وأن ما ورد فيه مما يشير إلى الأمة الإسلامية إنما قد ورد بمعني الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ثم أن «التشريع الإسلامي تشريع للحياة والحضارة وليس تشريعاً للدولة» (٧٨).

والأستاذ الحمزة دعبس يقول «إن الخلافة ليست فرضاً ولا ركنا من أركان الإسلام ومن يطالبون بها يزايدون. فالإسلام في القرآن والسنة لم يبين شكلا محددا للحكم، ولكن الله سبحانه وتعالي ترك شكل الحكم للمسلمين بحسب ظروفهم في كل زمان ومكان، وهذا ملمح من ملامح عظمة الإسلام فهو لم يفرض عليهم شكلا معنيا للحكم. أن الخلافة ليست فرضا من فروض الإسلام، ولا ركنا من أركانه، والرأي عندي أن من يطالبون بالخلافة فى الوقت الحاضر يطلبون أمراً غير لازم فى الإسلام ويتزيدون فى الإسلام ويزايدون عليه»(٩٧).

والأستاذ سليمان فياض يقول «وطمع ملوك دنيويون فى أن يكونوا خلفاء للمسلمين، واصطنع لهم علماء وفقهاء أشجار أنساب تنتمي إلى آل البيت، لكن التيار الإسلامي المدني كان جارفاً ففشلت محاولات العودة إلى النظام الخلافي في العقد الخامس من القرن

العشرين» ولكن ومع تنامي حركات الجمعيات والجماعات الإسلامية فى العقد السابع من القرن العشرين عادت الدعوة إلى نظام الخلافة، واصطنعت هذه الدعوة لنفسها تنظيمات إرهابية ترفع شعار الجهاد، وتكفر النظم الإسلامية المدنية و جميع المسلمين فى هذه الأنظمة، والهدف هو إقامة نظام الخلافة من جديد، والعودة بالحاضر إلى الماضي بمظالمه وصراعاته، وفتنه وثوراته، ومصارع رجاله، وإلغاء حق الشعوب المدني والدنيوي فى تقرير المصير واختيار الحاكمين، وتحديد مدة الحاكم تفاديا لقهر الحاكمين ، وتجديداً لنظام الحكم وروحه كل بضع سنين»(٨٠).

ونأتي بعد ذلك إلى الدكتور نصر حامد أبو زيد ونقرأ «يقول بعض الفقهاء إن الخلافة مشروعة إذا إدعاها قرشي سواء وصلها بالقوة أو بموافقة المسلمين أي بالشوري، أي لا يهم كيفية الوصول إلى الخلافة مادام الخليفة قرشياً. ويقول أبو حامد الغزالي يكفي اختيار الأمة رجلا واحداً ذا شوكة، وهو يجعل من هذا الاختيار شيئاً ألهيا مقدسا على اعتبار أن الله تعالي قد أمال القلوب إليه» ويمضي د. نصر «ولو تتبعنا كتب الفقه فى مناقشة قضية الخلافة نجد تبريراً دائما وبأثر رجعي، وتنظيراً بأثر رجعي لما حدث فعلا فى التاريخ، ونحن نعرف تاريخيا موقف الإمام مالك والإمام أبو حنيفة

ورفضهما أن يقوما بأي دور رسمي فى إطار السلطة السياسية» ثم «وإذا كان بعض تلاميذ أبي حنيفة كمحمد بن حسن الشيباني وأبو يوسف قد أصبحا قضاة فالسؤال هو: إلى أي حد ينفذ القاضي قانونا يمكن أن يسمي قانون الإمبراطورية أو الدولة، فالقاضي هنا فقيه ومفتي وينفذ القانون وفقا لمدرسته الفقهية، وكان للقاضي درجة من الحرية لكي يختار هذه الفتوي أو تلك بحيث يصعب أن نتصور وجود دولة يحكمها قانون موحد. والدليل على ذلك وجود المدارس الفقهية الأربعة في إطار المذهب السني، وهناك اختلافات فى كل مذهب حول أصوب الآراء وأرجح الآراء، وهكذا فإن القانون والفقه لم يكونا يمثلان مؤسسة بالمعني الذى يمثله القانون فى الدولة الحديثة»(٨١).

أما د. محمد عمارة فإنه يري أن شكل الخلافة المقول بها والسلطات المطلقة والمقدسة الممنوحة للخليفة تجعلنا «وبقليل من التأمل أمام شكل قديم من أشكال الفاشية الحديثة وتأليه لفرد يزعم البعض أن له من القدرات والصفات ما لا يشاركه فيه فرد آخر، بل ولا تشاركه فيه الأمة كلها مجتمعه، والنتيجة هي احتقار الجماهير، وهذا الاحتقار هو المقدمة لاغتيال مصالحها لحساب من تخدمهم وتخدم مصالحهم هذه النظريات. والوسيلة النظرية إلى ذلك هي

الزعم بأن السلطة ليست مدنية حتي تتولاها الأمة، وإنما هي دينية تستأثر بها السماء التي أنابت عنها حاكماً، حسابه أمامها وليس أمام البشر المحكومين»(٨٢).

ويستند د. عمارة في موقفه من موضوع الدولة الدينية إلى قول الجاحظ «أن ما هو دين جاء به الوحي وانتقل إلينا في القرآن نتلقاه بروح الإيمان من مصدره هذا مستعينين بالسنة التي ينفي عنها الوضع والتحريف موافقتها للقرآن، ومستأنسين ومسترشدين في نظرنا هذا بالعقل الذى هو وكيل الله في الإنسان جعل إليه زمام أموره وقيادة نشاطاته»(٨٣)

وإلى قول ابن رشد «أجمع المسلمون على إنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها وكل ما أدى إليه البرهان العقلي وخالفه ظاهر الشرع، فإن ذلك الظاهر بالقطع يقبل التأويل»(٨٤).

ثم يعود الدكتور عمارة ليؤكد «أن ما هو دنيا وأحكام وسياسة لم يعرض لها القرآن بنص وتفصيل علينا أن نجعل الاحتكام فيها للاجتهاد والرأي ، وأن يكون المعيار والهدف هو المصلحة المبتغاه لمجموع الأمة ودفع المضرة المحتملة عنها، على أن يكون ذلك كله في إطار الوصايا العامة والقواعد الكلية التي حددها القرآن عندما دعا إلى الخير والعدل والشوري وحذر من الضرر والضرار»(٨٥).

.. وكلمات مثل الحق والخير والعدل والشوري تعود بنا لنقارنها ببغي الخلفاء وتسلطهم.. إذ نقرأ قول معاوية أول الخلفاء المتجبرين «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذت فلي، وما تركته للناس فبالفضل مني»(٨٦).

وأبو جعفر المنصور يخطب في الناس «أيها الناس لقد أصحبنا لكم قادة ، وعنكم زاده، نحكمكم بحق الله الذي أولانا، وسلطانه الذى أعطانا، وإنما أنا سلطان الله في أرضه ، وحارسه على ماله، جعلني عليه قفلا، إن شاء أن يفتحني لإعطائكم، وأن شاء أن يقفلني»(٨٧).

ونختتم هذه المواقف بموقف أحد الولاة الأمويين خالد بن عبدالله القسري عندما نفذ أمر الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك بقتل المفكر الإسلامي المعارض لبني أمية الجعد بن درهم، لكنه نفذه بطريقة تليق بطغيان خلفاء بني أمية فقد خطب خطبه عيد الأضحي ثم اختتم الخطبة قائلا «أيها الناس انصرفوا تقبل الله منكم، فأنا أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم، ثم نزل من على المنبر ليذبح اضحيته العالم الفقيه الجعد بن درهم»(٨٨)

وبهذه المأساة التي هي واحدة من آلاف تواترت على مدي سنوات الخلافة نختتم هذه الكتابة.

* * *

ثم نأتي بعد ذلك إلى آخر ما يتشبث به دعاة الخلافة من حجج، وهو القول بأن الخلافة أداة لإنفاذ حاكمية الله على الأرض. ويستخدمون ما ورد في القرآن من كلمة «حكم» كدليل على حقهم في إنفاذ حكم الله عبر نظام سياسي يحكمون به البشر. محاولين القول بأن حاكميته سبحانه، قد اشتقت من مصطلح «الحكم» أي إدارة شئون الدولة وإقامة السلطة السيادية فيها، بينما تأمل الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة حكم والرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة يقودنا إلى الاعتقاد وربما اليقين بأنها وردت بمعني «القضاء» والفصل في المنازعات، أو بمعني «الحكمة» أي التفقه والعلم، ولا علاقة لها لا بالخلافة والإمامة ولا بفرض السلطة السياسية أو السيادة علي المسلمين».

ونتأمل عددا من الآيات الكريمة.

- «يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وأتيناه الحكم صبيا» (مريم ١٢) ونبي الله يحيى لم يكن حاكماً، ولكنه منح من الله «الحكمة» وهو صبي.

- كذلك نقرأ آية عن عيسي بن مريم تقول «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي»(آل عمران ٧٩) وهو لم يكن حاكماً سياسياً ولا صاحب سلطة في نظام أو

دولة. والحكم هنا تعني الحكمة.

- ولوط لم يكن حاكماً ومع ذلك فإن سبحانه وتعالي قد منحه «حكما وعلما» «ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين» (الأنبياء ٧٤). والحكم هنا جاء بمعني الحكمة والتحق به العلم.

- كذلك سيدنا موسي «ولما بلغ أشده واستوي آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين»(القصص١٤). وموسى لم يكن حاكماً. وأيضا هنا تلتحق كلمتان ببعضهما الحكم والعلم أو وفق تفسير البيضاوي« نبوة» وعلما (٨٩).

› وموسى عندما قتل المصري وفر هارباً من فرعون وجنوده لم يؤسس دولة ولا حكما ومع ذلك يقول القرآن الكريم «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين» (الشعراء ٢١) ومعناها واضح أي منحني الله حكمة ونبوة .

- وكذلك نقرأ الآية الكريمة التي تتحدث عن بني إسرائيل الذين أتاهم الله «الكتاب والحكم والنبوة» (الجاثية ١٦). ويفسر البيضاوي كلمة «الحكم» هنا بأنها «الحكمة النظرية والعلمية أو فصل الخصومات»(٩٠).

- وسيدنا إبراهيم يدعو الله قائلا «رب هب لي حكما والحقني

بالصالحين» (الشعراء ٨٣) ويقول البيضاوي «أي هب لي كمالا فى العلم»[٩١].

- ثم نقرأ في سورة الأنعام «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علي قومه، نرفع درجات من نشاء. أن ربك حكيم عليم. ووهبنا له أسحق ويعقوب كلا هدينا. ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسي وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيي وعيسي وإلياس كل من الصالحين، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا علي العالمين، ومن ابائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم، ذلك هدي الله يهدي به من يشاء من عباده، ولو اشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون أولئك آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة» (الأنعام ٨٣-٨٩) وكثير من هؤلاء الأنبياء لم يكن حاكماً ولا ذا سلطة أو سلطان وكلمه الحكم هنا تعني عند البيضاوي «الحكمة، والحجة فى تبيان الحق من الباطل»[٩٢].

- وفي الآية الكريمة «ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون»(آل عمران ٥٥).

- وأيضا «فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين علي المؤمنين سبيلا» (النساء ١٤١).

وكلمة الحكم تأتي للفصل بين المتنازعن أي بمعني «القضاء»

وليس بمعني السلطة السياسية.

- وهو ما يتضح أيضاً من الآية الكريمة «وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به، وطائفة لم يؤمنوا فأصبروا حتي يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» (الأعراف ٨٧).. أي يقضي بيننا.

- وكذلك الأمر في الآية «الملك يومئذ لله يحكم بينهم، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين»(الحج ٥٦ -٥٧.

- والامر واضح تماما في الآية «وأن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون.. الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون». (الحج- ٦٨-٦٩).

الحكم هنا وفي آيات عديدة أخرى منسوب إليه سبحانه كقضاء وفصل في التحاكم إليه وليس نظاما لحكم أو حكومة.

وحتي بالنسبة للبشر فإن كلمة «حكم» و«يحكم» وردت بمعني الفصل فى الخصومات أو بمعني مباشرة القضاة..

- تقول الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذووا عدل منكم» (المائدة ٩٥).

- كذلك يبدو الأمر واضحاً للغاية في الآية الكريمة «وداود

وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين»(الأنبياء ٧٨).

لكن الكثيرين من دعاة الخلافة والمتمسكين بها يستندون إلى تفسيرهم لآيات مثل «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله»(النساء :١٠٥).

ونعود إلى سبب نزول هذه الآية وهو ما يستند إليه المفسرون لفهم المقصود من النص.. فالبيضاوي والقرطبي يقولان أن الآية نزلت فى رجل من بني ظفر هو طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جار له هو قتادة بن النعمان، ثم خبأه أثناء سيره فى جراب دقيق فإنساب الدقيق بعلامات تحدد مسار طريقة، وخبأ طعمه الدرع عند يهودي يسمي زيد بن السمين. وعند بدأ التحقيق في الأمر أقسم «طعمة» إنه لم يأخذ الدرع ولا علم له بمكانه، فتركوه، ثم قادهم أثر الدقيق إلى بيت اليهودي فوجدوها عنده، فقال أن طعمه أحضرها إليه وأستأمنه عليها، وأتي بشهود من اليهود. فقامت بنو ظفر تطلب من الرسول إلا ينصر اليهودي علي المسلم قائلين له «إن لم تفعل هلك طعمه وافتضح، وبرئ اليهودي» وأوشك الرسول أن يفعل ذلك لكن الله أوحى إليه بحقيقة الأمر وأمره أن «يحكم» أي أن «يقضي» بما أعلمه به وأن لا يكون للخائنين نصيراً، وطلب منه الاستغفار عما

أوشك أن يفعل.

«واستغفر الله أن الله كان غفوراً رحيما»(٩٣).

وتستخدم كلمة «حكم» في القرآن الكريم بمعني «رأي» أو موقف، «وإذا بشر أحدهم بالأنثي ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتواري عن القوم من سوء ما بشر، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون» (النحل - ٥٨ -٥٩). وكذلك الآية «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون» (الجاثية ٢١).

وهكذا فإن كلمات «حكم» و«يحكم» و«حاكم» قد وردت وبشكل واضح تماماً بمعني الحكمة أو العلم أو الرأي أو الموقف أو الفصل في الخصومات(٩٣).. وما لأي من هذا علاقة بما يقول به دعاه الخلافة من حاكم لكل مسلمي الأرض يحكم بإرادة إلهية ويكتسب قدسية لذاته ولأحكامه. وهو ما لم نر له أثراً لا في القرآن ولا في السنة الصحيحة.

* * *

ولم يبق أمامنا، وبعد كل ما سبق من حديث وحجج سوي أن نقرر أن دعوة «الخلافة» و«الإمامة» ومنح الحاكم سلطة دينية، أو القول بأنه «خليفة الله» أو «ظله» أو «الحاكم بأمره».. أن ذلك كله

كان منذ بدايته الأولى وحتي الآن مجرد موقف سياسي يستهدف به أصحابه تبرير أو تمرير مصالحهم الذاتية أوالسياسية تحت عباءة تزعم إنها من الدين أو تنتمي إليه. وما للدين أقصد صحيح الدين علاقة بهذا الأمر كله.

والواضح الجلى إن الرسول (صلعم) قد ترك الأمر دون تفصيل أو تحديد لأنه تركه للاستحسان والاجتهاد وفق متغيرات الزمان والمكان، إعمالا للمبدأ الشرعي تجاه «المتروك» وإعمالا للقول الفقهي السديد «ما يتناهي لا يضبط ما لا يتناهي» وللمبدأ الشرعي «حيث تتحقق مصلحة الناس فثمة شرع الله».

أو هذا ما أعتقد.

الهوامش

١ – مختار الصحاح.

٢ – الوسيط.

٣ – الإنترنت. موقع الخلافة. WWW. Khilafah.net

٤ – المرجع السابق .

٥ – أبكار السقاف – الدين في شبه الجزيرة العربية– القاهرة (٢٠٠٠) – ص١١.

٦ – الشهرستاني– الملل والنحل – ج٢–ص٣٦٦.

٧ – د. محمود سلام زناتي– نظم العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام – القاهرة (١٩٩٥)– ص٢٥٣.

٨ – المرجع السابق– ص٢٥٤.

٩ – المرجع السابق.

١٠ – د. احسان النص– العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي– ط٢– القاهرة (١٩٧٣). ص١٧٥.

١١ – سليمان كتاني – الإمام الحسين في حلة البرفير– قمر، إيران (١٩٩٠). ص٣٢.

١٢ – المرجع السابق– ص٣٨.

١٣ – د. محمود سلام زناتي – المرجع السابق– ص٢٤٩.

١٤ – عبدالله بن عبدالعزيز بن إدريس– مجتمع المدينة فى عهد الرسول – الرياض (١٩٨٢)– ص١٨٧.

١٥ – د. عبدالله محمد السيف– الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد

والحجاز في العصر الأموي - الرياض (١٩٨٣) - ص٤٢.

١٦ - المرجع السابق- ص١٣٦.

١٧ - د. محمود سلام زناتي- المرجع السابق- ص٢٨٠.

١٨ - مولوي حسين- الإدارة العربية- ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي- القاهرة (١٩٥٨) ص٤٤.

١٩ - إبكار السقاف - المرجع السابق - ص٢٤٩.

٢٠ - ابن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة- تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم - القاهرة (١٩٦٧)ج٢ -ص٩.

٢١ - د. محمد عمارة - الإسلام والسلطة الدينية، القاهرة (١٩٧٩) ص١٣.

٢٢ - أبو جعفر الطوسي- تلخيص الشافي- تحقيق السيد حسين بحر العلوم- النجف (١٣٨٤هـ) ج١ - ص٩.

٢٣ - ابن كثير- ج ٦- ص٣١١.

٢٤ - ابن الاثير - الكامل في التاريخ.

٢٥ - أبو حيان التوحيدي - الامتاع والمؤانسة - بيروت (د.ت) -ج٢-ص٩٥.

٢٦ - على حرب وآخرون- العنف الأصولي، نواب الأرض والسماء- دراسة بعنوان «المصدر البشري- علمانية الدولة في الإسلام ، بيروت (١٩٩٦) ص ٩٦.

٢٧ - المرجع السابق- ص٩٥.

٢٨ - السيوطي- الاتقان في علوم القرآن- ص٤٨.

٢٩ - أبو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني- كتاب الأغاني- ج١٧- ص٣٨.

٣٠ - سليمان فياض- الوجه الآخر للخلافة الإسلامية- القاهرة (١٩٩٩)- ص٢٩.

٣١ - المرجع السابق- ص٤٢.

٣٢ - على حرب - المرجع السابق- ص٩٧.

٣٣ – مجموعة برديات العوجه– البردية رقم ٥٦٠

٣٤– أحمد أمين – ضحي الإسلام– القاهرة– (١٩٩٨) – ص٦٠

٣٥ – المرجع السابق– ص١٢٠٠

٣٦ – المرجع السابق– ص١٣٨٠

٣٧– أبو عمر بن عبد ربه الأندلسي – العقد الفريد – القاهرة (١٣٠٥هـ)٠

٣٨ – أحمد أمين – المرجع السابق– ص١٣٩٠

٣٩ – أحمد أمين – المرجع السابق– ص ١٤٥٠

٤٠ – المرجع السابق– ص٢٠٨٠

٤١ – المرجع السابق– ص ٢٥١٠

٤٢ –المرجع السابق– ص٢٢٧٠

٤٣– المرجع السابق– ص٢٨٥٠

٤٤– المرجع السابق– ص٢٩٦٠

٤٥– د٠ علي الراعي– المسرح في الوطن العربي– القاهرة : ص٣٧٠

٤٦ – ابن حزم– الفصل٠

٤٧ – ابو الأعلي المودودي – نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور– ص٧١٠

٤٨ – رشيد رضا– الخلافة أو الإمامة العظمي– مطبعة المنار بمصر (١٣٤١هـ) ص١١٦ – ص١٢٨٠

٤٩ – حسن البنا– الرسائل – ص٢٧٠

٥٠ – شكري مصطفي– التوسمات– مخطوط٠

٥١ – صالح سرية– رسالة الإيمان–ص١٦٠

٥٢ – عمر عبدالرحمن – حتمية المواجهة– مطبوعات الجماعة الإسلامية– ص٦٣٠

٥٣ – المرجع السابق٠

٥٤ - المجلة- لندن - ٣١-١٢-١٩٩٥.

٥٥ - المرجع السابق.

٥٦ - الشهرستاني- نهاية الإقدام.

٥٧ - الجرجاني- شرح المواقف.

٥٨ - الغزالي- الاقتصاد في الاعتقاد.

٥٩ - أبو حفص عمر بن جميع- عقيدة التوحيد- ص ١٥٤.

٦٠ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ط٤-ج٣-ص٢٠٣.

٦١ - الإمام نجم الدين النسفي- العقائد النسفية.

٦٢ - القاضي عضد الدين- المواقف.

٦٣ - الآمدي- غاية المرام في علم الكلام- تحقيق حسن محمود عبداللطيف- إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة(١٣٩١ هـ -١٩٧١م) ص ٣٦٣.

٦٤ - مجموعة من رجال الدين الاتراك- الخلافة وسلطه الأمة- دار النهر القاهرة- ص٩٢.

٦٥ - المرجع السابق.

٦٦ - المرجع السابق- ص٩٣.

٦٧ - المرجع السابق- ص١٠٥.

٦٨ - المرجع السابق- نقلا عن : تاريخ الخلفاء ص٣٥٠.

٦٩ - المرجع السابق - ص١٣٤.

٧٠ - د. أحمد البغدادي- تجديد الفكر الديني- دعوة لاستخدام العقل- ص٤١٢.

٧١ - قاسم أمين- المرأة الجديدة- ص٣٤.

٧٢ - الشيخ محمد عبده - الأعمال الكاملة- تحقيق د. محمد عمارة -

ج٢-ص٢٨٧.

٧٣ - المرجع السابق- ج٣ - ص٤٣٠.

٧٤ - المرجع السابق- ج٣ - ص٢٨٥.

٧٥ - جمال الدين الأفغاني- الأعمال الكاملة - تحقيق د. محمد عمارة - القاهرة (١٩٦٨)- ص٤٧٨.

٧٦ - الشيخ علي عبدالرازق- الإسلام وأصول الحكم- القاهرة - ص٣٦.

٧٧ - المرجع السابق.

٧٨ - نقلا عن : السيد يوسف- الإخوان المسلمون والدولة الدينية- القاهرة (١٩٩٦)-ص٢٦.

٧٩ - المجلة - لندن- ٦-١-١٩٩٦.

٨٠ - سليمان فياض- المرجع السابق- ص٦.

٨١- الثقافة الجديدة- لندن (٢٠٠١) . دراسة للدكتور نصر حامد أبو زيد بعنوان «هل هناك مفهوم للحكم والسلطة في الفكر الإسلامي؟».

٨٢ - د. محمد عمارة- الإسلام والسلطة الدينية- المرجع السابق-ص٢٥.

٨٣ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- رسائل الجاحظ- تحقيق عبد السلام هارون- ج١- القاهرة (١٩١٤)-ص٩٢.

٨٤ - أبو الوليد بن محمد بن رشد- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال- دراسة وتحقيق د. محمد عمارة- القاهرة(١٩٧٢).

٨٥ - د. محمد عمارة - المرجع السابق- ص١٥.

٨٦- د. طه حسين- الفتنة الكبرى- ج٢- القاهرة (١٩٧٠)-ص٢٣٤.

٨٧ - أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه- العقد الفريد- القاهرة(١٣٠٥هـ) ج٢-٧٢.

٨٨ - عز الدين ابن الأثير- اللباب في تهذيب الأنساب- ج١- ص٢٨٢.

٨٩ - البيضاوي- تفسير البيضاوي (القاهرة (١٩٢٦)-ص٥٤١.

٩٠ - المرجع السابق- ص٦٩٠.

٩١ - المرجع السابق- ص٥١٩.

٩٢ - المرجع السابق- ص٢١٠.

٩٣ - البيضاوي- تفسير البيضاوي- المرجع السابق- ص١٥٣.

وكذلك : أبو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي- الجامع لأحكام القرآن- القاهرة- ١٩٤٢- ج٥ -ص٣٧٥.

٩٤- معجم ألفاظ القرآن الكريم- مجمع اللغة العربية- القاهرة (١٩٧٠).

خاتمة

إذا زرت يا مولاي قبر محمـــد

وقبلت مثوى الأعظـــم العطرات

فقل لرسول الله يا خير مرســـل

أبثك ما تدري من الحســـــرات

شعوبك في شرق البلاد وغربها

كأصحاب كهف في عميــق سبات

أحمد شوقي

المراجع

أ- مراجع عربية ومترجمة

- أبكار السقاف - الدين في شبه الجزيرة العربية.
- إبراهيم قاعود- عمر التلمساني شاهداً علي العصر.
- إبراهيم عيسي- عمائم وخناجر، عن كارثة التطرف في مصر.
- أبو حفص عمر بن جميع - عقيدة التوحيد.
- أبو حيان التوحيدي - الامتاع والمؤانسة.
- أبو جعفر الطوسي- تلخيص الشافي- تحقيق السيد حسين بحر العلوم.
- أبو عمر بن عبد ربه الاندلسي- العقد الفريد.
- ابن الأثير (عز الدين)- الكامل في التاريخ.
  - اللباب في تهذيب الأنساب
- ابن ابي الحديد- شرح نهج البلاغة.
- ابن حزم - الفصل
- ابن إياس- بدائع الزهور في وقائع الدهور.

- ابن رشد (أبو الوليد بن محمد)- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال- تحقيق د. محمد عمارة.
- ابن كثير (الحافظ)- البداية والنهاية في الفتن والملاحم.
- احسان النص (الدكتور) - العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي.
- أحمد البغدادي(دكتور) - تجديد الفكر الديني.
- أحمد أمين - ضحي الإسلام.
- أحمد رائف - سراديب الشيطان، صفحات من تاريخ الإخوان.
- الأشعري (أبو الحسن) - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.
- الاصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) - كتاب الأغاني.
- الآمدي - غاية المرام في علم الكلام - تحقيق حسن محمود عبداللطيف.
- أيمن الظواهري (الدكتور) - الحصاد المر- الإخوان المسلمون في ستين عاما.
- فرسان تحت راية النبي
- شفاء صدور المؤمنين.
- نصح الأمة باجتناب فتوي الشيخ ابن باز بجواز دخول مجلس الأمة.

- أمين الخولي (الشيخ)- المجددون في الإسلام.
- البيضاوي - تفسير البيضاوي.
- تقرير اللجنة الدولية لمكافحة المخدرات -١٩٩٨- الأمم المتحدة.
- تقرير عن المدارس الدينية في باكستان- وزارة الشئون الدينية الباكستانية - إسلام أباد- ١٩٩٨.
- البرزنجي- الإشاعة في أشراط الساعة.
- بول ووكر- الفكر الإسماعيلي في عصر الحاكم بأمر الله- ترجمة سيف الدين القصير.
- الجاحظ (ابو عثمان عمرو بن بحر) رسائل الجاحظ- تحقيق عبد السلام هارون.
- الجرجاني - شرح المواقف.
- جمال الدين الأفغاني- الأعمال الكاملة- تحقيق د. محمد عمارة.
- حسن البنا - الرسائل.
- رسائل التعاليم.
-حسين (مولوي) - الإدارة العربية.
- رشيد رضا (الشيخ)- الخلافة و الإمامة العظمي.
- تاريخ الاستاذ الإمام.
- رفاعة الطهطاوي (الشيخ) - تخليص الإبريز في تلخيص باريز

- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية.
- المرشد الأمين للبنات والبنين.
- رفعت السعيد(دكتور) - العلمانية بين الإسلام والتأسلم.
- سليمان فياض- الوجه الآخر للخلافة.
- سليمان كتاني- الإمام الحسين في حلة البرفير.
- السيوطي (جلال الدين) - الاتقان في علوم القرآن.
- التنبئة بمن يبعثه الله علي رأس كل مائة سنة.
- سيد قطب- معالم في الطريق.
- السيد يوسف- الإخوان المسلمون والدولة الدينية.
- شكيب أرسلان (الأمير) - لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟
- شكري مصطفي- التوسمات (مخطوط).
- الشهرستاني- الملل والنحل.
- نهاية الإقدام
- صالح سرية- رسالة الإيمان.
- الطاهر الحداد- امرأتنا في الشريعة والمجتمع.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)- تاريخ الرسل والملوك.
- الجامع لأحكام القرآن.

- الطرطوشي (أبو بكر) – سراج الملوك
- طه حسين (الدكتور) – الفتنة الكبرى.
- عاطف العراقي (دكتور) – العقل والتنوير في الفكر العربي المعاصر.
- عبد الله محمد السيف (دكتور) – الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي.
- عبد الرحمن الكواكبي(الشيخ) – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.
- أم القرى.
- عبدالعاطي محمد أحمد– الفكر السياسي للإمام محمد عبده.
- عبد الرحيم على– أسامة بن لادن، الشيخ الذي صنعته أمريكا.
- عبدالحليم غزالي– طالبان العمائم والمدافع والأفيون.
- عزيز العظمة– (دكتور)– محاضرة القيت في اليونسكو.
- عضد الدين (القاضي)– المواقف.
- علي عبد الرازق (الشيخ) – الإسلام وأصول الحكم.
- علي الراعي (دكتور)– المسرح في الوطن العربي.
- علي حرب (وآخرون) – العنف الأصولي، نواب الحرب والسماء.
- علي الهندي (السيد الأمير) – مركز المرأة في الإسلام– تعريب

علي فهمي محمد.
- عمر عبد الرحمن (الشيخ)- حتمية المواجهة.
- الغزالي (الإمام) - الاقتصاد في الاعتقاد.
- فاروق الدسوقي (دكتور) - البيان النبوي بانتصار العراقيين علي الروم (أمريكا وبريطانيا) والترك وتدمير إسرائيل وتحرير الأقصى.
- الفارابي (أبو نصر - المعلم الثاني) - آراء أهل المدينة الفاضلة.
- قاسم أمين - الأعمال الكاملة.
- المرأة الجديدة.
- الماوردي (أبو الحسن) - الأحكام السلطانية.
- الكرماني (حميد الدين) - الرسالة الحاوية في الليل والنهار.
- مجموعة من رجال الدين الأتراك- الخلافة وسلطة الأمة.
- محمد حسين هيكل (دكتور)- حياة محمد.
- محمد الدسوقي (دكتور)- التجديد في الفقه الإسلامي.
- محمد عبده (الأستاذ الإمام)- الأعمال الكاملة- تحقيق د. محمد عمارة.
- الإسلام بين العلم والمدينة.
- محمد عمارة (دكتور)- الإسلام والسلطة الدينية.

- محمد كامل ضاهر (دكتور) - الصراع بين التيارين الديني والعلماني.
- محمد المهدي الحجوي (الشيخ)- المرأة بين الشرع والقانون.
- محمود سلام زناتي (دكتور)- نظم العرب في الجاهلية وصدر الإسلام.
- محمود الصباغ- حقيقة النظام الخاص.
- المودودي (أبو الأعلى)- نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور.
- نظرية الإسلام السياسية.
- الإسلام والمدنية الحديثة.
- نبيل محمد رشوان- دور السعوديين في إفساد دين المسلمين.
- النسفي (الإمام نجم الدين)- العقائد النسفية.

ب - قواميس وموسوعات ووثائق وصحف وإنترنت

- لسان العرب.
- مختار الصحاح.
- المحيط.
- المعجم الوسيط.

- مجم ألفاظ القرآن الكريم.
- د. مراد وهبة - معجم المصطلحات الفلسفية.
- مجموعة برديات العوجة.
- موقع الخلافة علي الإنترنت. WWW. Khilafah.net
- محضر أقوال شكري مصطفي أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا في القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧ (قضية اغتيال الشيخ الذهبي).
- حيثيات الحكم الصادر في قضية جماعة شباب محمد المتهم فيها صالح سرية وآخرون.
- أسامة بن لادن حوار مسجل بصوته مع الصحفي جمال إسماعيل سبتمبر ١٩٩٨.
- راشد الحق بن سميع الحق- تصريح صحفي- أكتوبر ١٩٩٨.
- وكيل أحمد متوكل (مولولي) - تصريح صحفي سبتمبر ١٩٩٨.
- الثقافة الجديدة (لندن).
- الإخوان المسلمون (الأسبوعية) (١٩٤٦).
- الدعوة (١٩٥٢).
- الديمقراطية.
- فصول.

- القاهرة.
- المجتمع (الكويت).
- النذير (١٣٥٧هـ)
- اليسار الإسلامي.

ج - مراجع أجنبية

- Albert Hourani - Arabic Thought in the Libral age - London, 1967.
- Oxford Dictionary.

الفهرس

- قاموس للاستخدام المباشر ٥
- ما قبل البداية ١٧
- ١١ سبتمبر.. ليست بداية وليست نهاية.................. ٤٣
- ثالوث أحداث ١١ سبتمبر.................................. ٦٩
- الديمقراطية في الفكر الإسلامي (رؤى متناقضة) ١١٩
- قضية المرأة بين الإسلام والتأسلم.......................... ١٦٥
- أوهام الخلافة ١٩٧
- خاتمة ٢٥٧
- المراجع ٢٦١

رقم الإيداع : ١١٧١٤ / ٢٠٠٤
I.S.B.N : 977-01-9123-x

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة

هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى بأكثر من ٨٠ مليون نسخة كتاب من أمهات الكتب فى فروع المعرفة الإنسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تفتحت عيون أطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر السنوات العشرة الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ البداية أن المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه المعرفة على القوة والمال لأنها تحمل الإنسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات وسرعة تدفقها عبر كل وسائل الاتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى.. فكانت مكتبة الأسرة بكل ما قدمت إسهامة أساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد، عصر المعرفة وإنا لنتطلع فى الأعوام القادمة أن تواصل مكتبة الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتفسح المجال لشبابنا أن يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لنكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضارة المصرية القديمة التى كانت أهم وأقدم الحضارات الإنسانية عبر التاريخ.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

الثمن ٢٠٠ قرش